
جوهر الإسلام معرفة غايات الخلق ومنهج التطور
نحو فهم جديد للدين
د. حامد العطية
2015م

جوهر الإسلام معرفة غايات الخلق ومنهج التطور

نحو فهم جديد للدين

د. حامد العطية

2015م

الفهرس

مقدمة منهجية

يخبرنا القرآن الكريم بأن الملائكة تخوفوا من خلق البشر لأنهم قادرون على الفساد وسفك الدِّماء، والفساد اليوم بمختلف أشكاله متفشي في المجتمعات الإسلامية، ولعلهم أكثر الأمم سفكاً للدماء، وغالبية ضحاياهم مسلمون أيضاً، ومَنْ كان مفسداً وسفاكاً للدماء لا يستحق الخلق في حكم الملائكة، فهل أصبحنا غير جديرين بالوجود؟ يثير هذا الاحتمال التساؤل حول عقيدتنا الدِّينيَّة، فأما أن يكون الخلل في العقيدة نفسها أو في فهمنا للعقيدة، والاحتمال الأول مرفوض فلا يبقى سوى الثاني، فأين أخطأنا الفهم؟

الهدي الرَّبانيّ مثالي بالمطلق، هكذا يحتم الإيمان، ولا تتحقق المثالية من دون اكتمال، ومن المحال أن تكون العقيدة بلا نظام كلّي، إذ لا تدرك التفاصيل ولا تعرف وظائفها على وجه الدقة من دون إدراك الكلّ العقائدي للرِّسالة، والكلّ ليس مجرد لملمة للأجزاء، بل هو الأصل، الذي يبين الهدف والاتجاه والمعنى.

انهمكنا بالجزئيات، فأبعدتنا عن إدراك النظام الكلّي، ومن دونه تتشتت الجزئيات، ونختلف حولها، وتتعمق الاختلافات، وكلٌّ واحد يعتقد بأنه على حق. إذن نحن نفتقد مرجعية النظام الكلّي، وبوجوده نستطيع اختبار صحة الجزئيات، فتضمحل الفروقات، وتتبدد الخلافات.

لا يكون النظام مثالياً ومكتملاً إذا لم يكن قادراً على قيادة حركة المجتمعات والأفراد في كلّ الأزمنة، وللقيادة شروط، أبسطها أن يكون موقع النظام في المقدمة، لا يواكب ولا يتأخر، ومواكبة النظام للتغيير والارتقاء غير مقبولة، إذ تعني أن عقيدة مختلفة تشترك في القيادة معه وقد تنفرد بها أحياناً، وادعاء مواكبة النظام العقائدي للتطور قد لا يكون في الحقيقة سوى موقف دفاعي أو تبريري، لإثبات أن النظام يستوعب التغيير أو هو بالحد الأدنى لا يتناقض معه، والأسوأ من ذلك أن يتلكّأ النظام خلف التغيير، فلا يتمكن حتى من مواكبته ناهيك عن قيادته، فما قيمة النظام العقائدي الرَّبانيّ إذا كان تابعاً أو مواكباً لا قائداً؟

أول متطلبات النظام الكلّي للعقيدة بيان الغايات المراد تحقيقها، وهو أمر بديهي، وإن غاب عن أذهان الكثيرين، أو لم يهتدوا إلى هذه الغايات، ومهما كان حجم الطاقات فهي لن تنشطُ ولن تنتج منها فائدة من دون غايات مشروعة، وحتى الخط المستقيم مجرد مسار نحو المجهول أو حتى الهاوية لو أفتقد للاتجاه الواضح، فالمطلوب أن يكون سهماً ذي وجهة إيجابية محددة لا خطاً على السطر.

خُلق البشر للخلافة في الأرض، هي سبب وجودهم، والمبرر لخلقهم، والكلّ مكلّفون بها، وتنطوي على وظيفتين أساسيتين وشاملتين، هما الإصلاح والإحياء، ولا جدال في كونهما ضروريتين لكل الأزمنة، في الماضي والحاضر والمستقبل، والحاجة لهما مستمرة، وحتى زوال البشر من الوجود، ولكن أداءهما قابل للتطور، لبلوغ مستويات أعلى من الإصلاح والإحياء، وهنا يأتي دور التعلُّم.

اقترنت الخلافة بالقدرة على التعلُّم، وهي الهبة الرَّبانيّة العظمى، وجوهر الفطرة الحميدة، اختصّ الخالق بها البشر، ولعلهم استحقوا سجود الملائكة بسببها، ولولاها لاستبدَّ الجهل بالعقول، وتلاشت إنسانية الإنسان، وسيطرت عليه نزعة الإفساد، وأفسدته شهوة الدِّماء.

الإنسان وعاء العقيدة، وعقله آلة إدراكها وفهمها، ونَفسه أمارة بها أو بغيرها. العقيدة مثلى، لكن بدون صلاح الوعاء لا تستقر العقيدة النقية في النفس، ولن تؤثر في الفكر والسُّلوك، فالمطلوب هو الارتقاء بالوعاء لكي يستقبل العقيدة المثلى ويطبقها، وهذه هي وظيفة التعلُّم الشاملة للمعرفة بأنواعها.

خلافة البشر لله في الأرض وما ينبثق منها من تكليف بالإصلاح والإحياء والتعلُّم هي المنطلق الأمثل الوحيد لفهم الدين وتطبيق أحكامه، ومن خلالها يتشكل النظام الكلّي للدين، في نسق عقلاني إيجابي وتطوري، ونلمُّ بالعقائد، ونمارس العبادات الصحيحة، وندرك الأحكام العادلة، ويكون

السُّلوك متطابقاً مع العقيدة والفكر والقيم، فلا يبقى فراغ تشغله الاجتهادات، وتتمدد داخله الخلافات والتناقضات.

لا تكتمل العقيدة بدون تحديد مسار ومنهجية التطور، فما قبل العقيدة جهل وتخلف وما بعدها مرحلتان رئيسيتان، هما مرحلتا الحسن والأحسن، وبالتالي يكون لتطبيق العقيدة امتداد في الحال والزمان، بين الكائن المتواضع في الماضي وحتى الحاضر، وصولاً إلى الحالة الأرقى في المستقبل. والمطلوب أولاً التحرك من الوضع الحالي الرديء إلى الحسن، وللحسن بدايات بعضها محدد وواضح وامتداد لا نهائي نحو الأحسن، واستحالة الكمال حقيقة ينبغي أن تكون حافزةً لا مثبِّطةً للهمم، فاليوم وكما قبل ألف سنة العدالة ناقصة، والمساواة جزئية، والتَّكافل قاصر، ونفوسنا بحاجة للتقويم، وهكذا سيكون الوضع نسبياً بعد ألف عام أيضاً، وحتى آخر يوم في أعمارنا وعمر البشريَّة، إذ سيبقى الإنسان ظلوماً جهولاً، حتى النهاية، يقرُّ بذلك على نفسه، ليبحث في داخله وحوله عن مواطن الجهل والظلم، فيعمد إلى معالجتها، وهو مدرك تماماً بأن ظلمه وجهله غير متناهيين، والأمانة الواجب حملها هي الحثُّ من جبال الظلم والجهل، اليوم وكل يوم، فلا مجال للجمود أو النكوص للوراء، وهكذا يكون تطبيق التَّديُّن متطوراً، نحو الأكمل والأتم دائماً، ولا سبيل لتحقيق ذلك من دون تعلُّم متواصل.

يتضمن هذا الكتاب حصيلة أولية لمحاولة فهم الإسلام القرآنيُّ بمعزل عن المداخل الفقهية المعروفة وانطلاقاً من اعتبار خلافة البشر في الأرض وما تنطوي عليه من تكاليف رأس النظام الكلِّيّ للرِّسالة والمنطوي على الأهداف العليا للبشرية جمعاء، والتعلُّم هو الوسيلة الأمثل للارتقاء بأدائنا لهذا التكليف العظيم من الحسن إلى الأحسن.

أولاً: في البدء كانت الخلافة والتعلُّم

في البدء كان الخلق، وأول الأسئلة التي يثيرها: لماذا خلقنا الله؟ وبالتأكيد لم نخلق عبثاً، وهذا محال بشهادة الرِّسالة الرَّبانيّة نفسها، فلا بد أن يكون للخلق غاية أو غايات عليا مبينة ومحددة في الرِّسالة، فمن دون وجهة محددة وواضحة ستضطرب حركة الأفراد والمجتمعات فتتباطأ أو حتى تنتكص إلى الوراء، وقد مر تاريخ المسلمين وحتى اليوم بفترات طويلة من الجمود والتخلف. فما جدوى الخريطة والبوصلة من دون معرفة الوجهة؟ ونحن نعرف قبلة الصَّلاة، فهل من المنطق والعقل أن يوجهنا خالقنا العليم الحكيم لقِبلة العبادة ولا يعلمنا قِبلة الخلق؟

هل الغرض من الخلق عبادة الله وحده؟ الله غنيّ عن عبادة البشر، ولن يضرّوه لو كفروا جميعاً، وهو يمنُّ علينا أن هدانا ولا نمنّ عليه بإيماننا، وجوهر العبادة الطاعة، وبما إن لخلق البشر غاية أو غايات يراد منهم بلوغها أو السعي لذلك فلا بد أن تكون على رأس قائمة طاعاتنا.

نعود إلى نقطة البداية لنبحث من جديد في دفّات الرِّسالة عن توجيه صريح وواضح، يبين لنا غايات الخلق والوسيلة أو الوسائل التي ستوصلنا إليها، ويوفر لنا جواباً للسؤال: لماذا خلقنا الله؟ أو ماذا يريد منا عمله في أرضه؟ فنجده في الحوار الدائر بين الله والملائكة حول جدوى خلق آدم والبشريَّة:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّماء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أعلم مَا لاَ تَعلمونَ وَعلم آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ علم لَنَا إِلاَّ مَا علمتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعلم غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعلم مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ [البقرة: 30-33]

تبين هذه الآيات تكليف البشر بالخلافة في الأرض وتخوّف الملائكة من نزعة البشر للإفساد وسفك الدِّماء ومن ثم اختبار معرفة آدم والملائكة للأسماء، وتتضمن أولى الحقائق حول خلق البشريَّة والسابقة لنزول الرِّسالات على البشر بواسطة الأنبياء والرّسل، وفائدتها الرئيسية بيان غايات خلق الإنسان كما سيتضح من النظر المتأني فيها.

تشتمل هذه الآيات الثلاث على التفاصيل التالية:

- تسمية الإنسان بالخليفة في الأرض.
- تخوّف الملائكة من جنوح الإنسان للإفساد وسفك الدِّماء.
- بيان الملائكة لمحاسنهم في التسبّيح بحمد الله وتقديسه.
- التنبيه على علم الله الكامل.
- تعلّيم الله الأسماء كلها لآدم.
- جهل الملائكة بالأسماء.
- بيان آدم للأسماء.
- التَّذكير بعلم الله الكامل والواسع.

الإنسان هو الخليفة في الأرض، ولا يختص آدم بهذه الصفة، بل هي لصيقة بكلِّ بني البشر، وكلُّ البشر خلفاء في الأرض، وبتعيين أو تكليف من خالقهم، ولا يُستثنى أحد، لا من الرجال أو النساء،

فلا تختص بها جماعة أو تتعلق بزمن معين، وحتى الذين لا يؤمنون بالله ويرفضون رسالاته مكلفون بالخلافة لكنهم جاهلون بها ومنصرِفون عن أداء تكاليفها وربما عاملون على النقيض منها.

من مقدمة هذه الآيات يستدل على أن الغرض العام والشامل من خلق البشر هو الخلافة في الأرض، ومن الطبيعي تبيان ذلك عند تلك النقطة من الزمن، أي عند حدوث الخلق، وبعد تصريح ربِّ العالمين بذلك إلى الملائكة تخوَّفوا من عدم استحقاق البشر لها لجنوحهم إلى سفك الدِّماء والإفساد، ولا بد أن يكون هذان السُّلوكان أسوأ ما يمكن أن يقترفه الإنسان، فالملائكة لم يعددوا كل شرور البشر المحتملة بل اكتفوا بإثنين، وهما كافيان في تقدير الملائكة للتوجُّس من خلق البشر أو على الأقل للتساؤل حول جدارتهم بهذا التكليف أو الوظيفة العظمى.

يستدلُّ على أهمية وخطورة سفك الدِّماء من ترتيبها في خطاب الملائكة بعد الفساد، مما يجعل سفك الدِّماء في مرتبة مساوية أو قريبة من الفساد، وإذا عرفنا بأن الفساد مصطلح يطلق على مختلف أنواع الشُّرور بما في ذلك سفك الدِّماء يمكن معرفة أهمية ذكر سفك الدِّماء بصورة مستقلة وعدم الاكتفاء بذكر قدرة البشر على الفساد.

الشرك بالله خطيئة عظمى، ويصفه القرآن الكريم بأنه ظلم عظيم، والله لا يغفر الشرك به، ولكنه يغفر ما دون ذلك من ذنوب، وعلى الرغم من ذلك لم يحتج الملائكة على خلق البشر بأن أكثرهم سيشركون بالله أو يعبدوا غيره من الأرباب المختلَقَة.

تساءل الملائكة: هذا الخليفة سيفسد فيها ويسفك الدِّماء، ليس لأنه مجبول على ذلك، وإنما لامتلاكه حرية الإرادة، وهو قادر على فعل الخير والشرِّ، والأمر عائد لاختياره، مع الادراك بأن مشيئة الله فوق إرادة البشر. قارن الملائكة بين هذا المخلوق البشري وبين أنفسهم، وبالتحديد بين ما هو ممكن منه والكائن منهم، هو عرضة لنزعة العصيان والإفساد، ولا يتورع أحياناً من اهلاك بني جنسه، وغيرهم من المخلوقات، وهم أي الملائكة يسبّحون ويقدّسون الخالق، وكأنهم يتمنون لو جعل الله الملائكة خلفاءه في الأرض، فلماذا يستحق بني البشر الخلافة؟

قارن الملائكة بين استعداد البشر للفساد وسفك الدِّماء وبين تسبيحهم وتقديسهم لربّهم، والفساد ليس بالضد من التّسبيح كما أن التقديس ليس نقيض سفك الدِّماء، فالعكس من التّسبيح والتقديس هو الانصراف عن تعظيم الله وتوحيده كما ينبغي، لكن الملائكة لم يأتوا على ذكر احتمال عزوف البشر عن التّسبيح والتقديس لأنهما وإن كانتا واجبتين على جميع الخلق لا يكفيان وحدهما لأداء تكاليف الخلافة في الأرض، لكن ما يعطل أو يقوض عمل الخلافة هو الفساد وسفك الدِّماء بدون شك، لذلك أشار إليهما الملائكة في تساءلهما حول استحقاق البشر للخلافة بل وحتى للخلق أصلاً، ولا ننسى بأن علم الملائكة المحدود هو من علم الله.

لم ينفي الله إمكانية اقتراف البشر للفساد وسفكهم للدماء، فهم مستحقون للخلافة ولو كثير منهم سفكوا الدِّماء وأفسدوا في الأرض، فقد حباهم الله حرية الإرادة، تحت سقف المشيئة الرَّبانيّة، ولهم الاختيار حتى بين الكفر والإيمان، وبين الإفساد والإصلاح، والإحياء والإهلاك، وقد يبدو الاختيار بين هذه البدائل أو الأضداد هيناً، هذا أبيض وذاك أسود، ولكن نظرة سريعة على تاريخ البشر تؤكد خطأ هذا الافتراض، إذ سرعان ما اكتشف الإنسان المنطقة الرمادية، حيث تختلط الأمور، ويضعف اليقين وتزداد الحيرة، وقد يقع فريسة الأهواء والمصالح الأنانية، فتصور له الإفساد إصلاحاً، والصلاح سذاجة وحماقة، فيكره ما هو خير له، ويحبُّ ما يجلب له الشرّ، والإنسان لا يهلُك آخرين فقط بل يرمي بنفسه للتَّهلكة أحياناً، وما يقترفه من فساد قد يرتدُّ عليه، والاتعاظ من أخطاءه وتجارب الغير ليس تلقائياً أو مضموناً.

لم يحتج الله على توجّس الملائكة من فساد ودموية البشر بالهدي الذي سينزلّه على الأنبياء والرُّسل، داعياً للصلاح وحفظ الأنفس، ومتوعداً المفسدين وسفاكي الدِّماء، ولا غنى للبشر عن هذا الهدي في تبيان طريق الصلاح والخير، وتجنب الضّلال المفضي إلى الخراب والفساد والقتل، كما لم

يأت البيان الرَّبانيّ للملائكة على ذكر القيم والأخلاق الفاضلة، وهي حصن الإنسان ضد الفساد والضلال، والكتب السّماوية تأمر بها، وتحثُّ عليها، ولا تطرق للصَّلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر، والصيام المحفِّز على الصَّبر والتعاطف، والحجّ الطّارد للفسوق والجدال، فلا ضمان لاجتناب البشر الإفساد وسفك الدِّماء ما داموا مخيرين، حتى لو تضمن الهدي قائمة شاملة ترسم لهم مسار حياتهم اليومية وتحدد لهم اختياراتهم فلا تترك كبيرة أو صغيرة إلا بينتها بتفاصيلها الدقيقة.

ولم يبين الخالق للملائكة بأنه سيعصم البشر عن سفك الدِّماء والإفساد، فهم في الغالب غير معصومين، والعصمة بينهم استثناء على القاعدة، ولم يحظى بها إلا المختارون منهم، وكلّ البشر قادرن على فعل الخير والشرّ، فطرتهم خيرة، لكنهم أحياناً يخالفونها ويقترفون كل أنواع الشُّرور.

إن الحالة السَّلبيَّة بالمطلق أن يكون جميع البشر وفي كل حين مفسدين وسفاكين للدِّماء، وامتناع البشر عن الفساد وسفك الدِّماء بحد ذاته حالة إيجابية، لكنها ليست الفضلى، فالمطلوب ليس فقط الامتناع عن الفساد بل أكثر من ذلك بكثير، أي الإصلاح، وكذلك فإن الامتناع عن سفك الدِّماء واجب بالحدِّ الأدنى، لكنه غير كاف، والأفضل هو الإحياء، وهكذا نستخلص من مخاوف الملائكة الغايتين الكلِّيَّتين لخلافة البشر في الأرض وهما الإصلاح والإحياء، وهما كما سنبين لاحقاً غايتان ثابتتان وممتدتان في الزمن.

بعد تساءل الملائكة حول جدوى خلق البشر وتكليفهم بالخلافة في الأرض تبين الآيات التاليات تعليم آدم الأسماء ومن ثم اختبار معرفة الملائكة وآدم لها، فهل كان القصد من ذلك افحام الملائكة ببرهان آخر على علم الله الواسع؟ لو أراد الخالق تقديم البرهان على علمه للملائكة لما تطلب اقحام آدم في الموضوع، إذ يكفي اختبار الملائكة بالأسماء وبعد اقرارهم بجهلهم لها، يأتي الاستنتاج العقلاني بأن الله يعلم ما لا يعلمون، ولا توجد حاجة لتعليم آدم الأسماء كلّها أو لإشهاده على علم الله، والحجة الرَّبانيّة مثالية في ضرورتها وقوتها واكتمالها، فلا نقصان فيها ولا زيادة، مما يدلُّ على أن مشاركة آدم في تعلُّم الأسماء أساسية لاكتمال الجواب على تساؤل الملائكة حول جدوى خلق آدم وتكليفه بالخلافة الأرضية.

جاء الرد الرَّبانيّ على تساءل الملائكة حول جدوى خلق الإنسان وتكليفه بالخلافة بشكل تجربة حسية تعليمية، تتثمل فيها كلّ مقومات التجارب العلمية، وتكوَّنت من مجموعتين، واحدة للتجربة ضمت آدم ممثلاً لكل البشر وأخرى من الملائكة لغرض السيطرة أو المقارنة، والاستنتاج أو البرهان مبني على نتيجة المقارنة.

بدأت التجربة بتعليم الله الأسماء كلّها لآدم، ولسنا بحاجة لمعرفة ماهية الأسماء، أو الظواهر التي تُعبِّر عنها، حيث أن الله لم يرى حاجة لذلك، لا في هذا السياق أو غيره، وإن كان للمفسِّرين أراء في ذلك، وما يمكن التنبه إليه هو أن الخالق لم يلقّن آدم شهادة التوحيد بأن لا إله إلا هو على الرغم من أهميتها المطلقة، ولم يعلّمه الوصايا العشر أو العبادات أو غيرها من التعاليم الرَّبانيّة التي أنزلها على انبياءه ورُسله فيما بعد، والمهم هنا أن آدم وحده تعلّم الأسماء، لأنه موضع التجربة والاختبار، ثم طلب الله من الملائكة تبيان الأسماء، فأقرّوا بجهلهم، لأنهم لا يعلمون إلا ما تلقّوه من العليم الحكيم، أما آدم فكانت اجابته حاضرة، أنبأهم بالأسماء، ولعله كان وقتها مزهواً بنفسه، وهل هنالك زهو أعظم من زهو المعرفة؟

لم يكن الهدف من أول تجربة يشهدها إنسان البرهان على تفوق آدم على الملائكة، فهما خلقان مختلفان، لكن لا ننسى بأن الله طلب من الملائكة أن يقعوا ساجدين لآدم، فامتثلوا لأمره، إلا إبليس.

يعلم الملائكة علم اليقين بأن الله عالم غيب السماوات والأرض، ويعلم ما يبدون ويكتمون، وهم أقرّوا بأنَّ العلم من عند الله، وجهلوا الأسماء، لأنهم لم يتلقّوا علمها من عند الله، إذن ليس القصد من هذه الآيات الثلاث إثبات علم الله للملائكة، فليس هناك من يدرك هذه الحقيقة خيراً منهم، بل المراد هو تقديم الدليل للملائكة بأن هذا المخلوق مستحق للخلق، وجدير بالخلافة في الأرض، ولن يكون

مجرد مفسد وسفاك للدماء، لأنه يمتلك ميزة محددة، وضعها الخالق داخله، وهباه العقل والحواس من أجلها، وهي القدرة على التعلُّم، فالقيمة الجوهرية للإنسان واستحقاقه للخلق والخلافة تنبع من قدرته على التعلُّم.

الإحياء والإصلاح والقدرة على التعلُّم

خلق الله البشر للخلافة في الأرض، وللخلافة مهام كبرى، تدلُّ عليها مخاوف الملائكة، إذ تبين الحالة السلبيّة المقيتة، وهي فساد البشر وسفكهم للدِّماء، ومقابلها الحالة الإيجابية المطلوبة، أي الإصلاح والإحياء، وهذا ما تؤكده آيات كثيرة في القرآن الكريم.

الإصلاح والإحياء ركنا الحياة البشريَّة، والمطلبان الرَّئيسيَّان لاستمرارها وازدهارها، وهما جامعان شاملان، يختزلان كل الإيجابيات، وينطويان على كل ما يرادّ للبشر بلوغه، وهما القيمتان الأعلى في هيكل القيم البشريَّة، الدِّينيَّة والأخلاقية، وتتفرع منهما كل القيم السّامية، والتي هي العمود الفقري للدِّيانات السماويّة، ويشترك في المسؤولية عنهما الجميع، فلا فرق بين حاكم ومحكوم، غنيّ وفقير، أو رجل وامرأة، وكما أنَّ الفساد وسفك الدِّماء مترابطان فإن الإصلاح والإحياء متلازمان أيضاً، ففي صلاح الفرد وقاية من الشرور، وما ينتج عنها من فساد وسفك دماء.

الخلافة في الأرض والإحياء والإصلاح والقدرة على التعلُّم عناصر مترابطة ومتداخلة، فلولا التعلُّم لما استطاع الإنسان السيطرة على النزعات السلبيّة المتمثلة في الإفساد وسفك الدِّماء ليتمكن من اداء مهمتي الخلافة الرئيسيتين: الإحياء والإصلاح، فكما أن الخلافة في الأرض هي الغرض من خلق البشر فإن القدرة على التعلُّم هي عِلّة استحقاق البشر للخلافة، أي هي قدرة وضعها الله في فطرة البشر ليكونوا مؤهلين ومستعدين للخلافة، وما تنطوي عليه من مهام ومسؤوليات جِسام.

وبالمقابل لو كان الإنسان غير قادر على التعلُّم أو رافضاً لذلك فلن يستطيع التغلب على نزعة الفساد وسفك الدِّماء وسيكون غير قادر على تأدية التكليف بالخلافة في الأرض، ومن المحال أن يخلق الله الإنسان وهو يدرك بأنه سيكون منقاداً تماماً ودائماً لنزعة الشرور والفساد وسفك الدِّماء.

نستنتج من هذا أيضاً وجود علاقة ثابتة بين صفتين أو سُلوكين للبشر: أولهما القدرة على التعلُّم، والثاني الفساد وسفك الدِّماء وما يؤدي لهما وينتج عنهما من شرور، وطبيعة هذه العلاقة أو بالأحرى القانون السماويّ عكسية، أي كلما تعلّم الإنسان وازدادت معارفه كلما ضعفت أو اضمحلت نزعته للفساد وسفك الدِّماء، وانصرف إلى الإحياء والإصلاح، أما لو تمكن الجهل من إنسان، فأغلق عقله على التعلُّم، أو انشغل عن التعلُّم باللهو وأمور أخرى، فسيزداد احتمال اقترافه للفساد وسفك الدِّماء، وهذه حقائق لم يتوصل لها الباحثون في العلوم الاجتماعية الحديثة وأكدتها نتائج دراساتهم الميدانية إلا مؤخراً نسبياً.

المنطلقات الأساسية لخلق وتطور البشريَّة

بينت هذه الآيات القرآنية ثلاثة ثوابت حول خلق وتطور البشريَّة وهي كالتالي:
- الإنسان خليفة الله في الأرض.
- الغايتان الأساسيتان للبشرية ووجودها وتطورها هما الإحياء (عكس سفك الدِّماء) والإصلاح (خلاف الإفساد)
- امتلاك الإنسان القدرة على التعلُّم.

وتشكل هذه الثوابت الثلاث إطاراً أو مدخلاً شاملاً ومتكاملاً ومتسقاً لفهم تعاليم الدين كما بينها القرآن الكريم وأوضحتها وفصلتها السُّنّة النَّبويَّة الصحيحة، وهذه التعاليم ضرورية لأداء التكليف بالخلافة في الأرض على الوجه الأمثل، وهي العنصر الرابع في الكلّية العقائدية.

ثانياً: الإنسان خليفة الله في الأرض

الخلافة أول تكليف ربّانيّ، ومنه انبثقت بقية التكاليف، وهي أيضاً عهد من الله لبني البشر، قبل أن تنزَّل الرسائل السماويّة، ويُصطفى الأنبياء والمرسلون، وتتوطد الديانات، وتتفرق المذاهب، ويتوزع الناس بين مؤمن وغير مؤمن، وتتكون المجتمعات والدول والامبراطوريات، ويتسلَّط بعض البشر على غيرهم.

ليس الخليفة أول البشر وحده، بل الجميع، من الذكور والإناث، والصِغار والكبار، والسابقين واللاحقين، ولا فرق بين حكام ورعية، أو فقهاء ومتعلمين، وهي تكليف بأمر الخالق، والتكريم الأرفع، والمسؤولية العظمى، إذن نحن كلّنا خلفاء في الأرض وما فيها.

كلّ البشر خلفاء، والخلفاء هم البشر، اسمان لجنس واحد من المخلوقات، وإن كان البعض غافلون عنها أو لاهون بأمورهم ومصالحهم، ولو أدركوا جميعاً بأنّهم خلفاء في الأرض بمشيئة وتعيين الله لاستشعروا عظمة البشر أجمعين.

خلافة مَنْ؟ الله بالطبع، وهل هنالك غيره؟

من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله
(حديث نبوي)

ينوب الخليفة عن الأصيل، وعلى قدر استطاعته، وقد يصيب ويخطأ، ولأنه مكلف بالخلافة فهو محاسب عليها. وفي علمنا المحدود فقد لا يوجد في العالم المادي أثمن من الأرض وما عليها، إذ حتى اليوم لا نعرف على وجه التحديد كوكباً يزخر بالحياة مثل الأرض، ولا بشر أو مخلوقات شبيهة بالإنسان وغيره من مخلوقات الأرض أو مختلفة عنها في مكان آخر من العالم المادي، فالأرض هي بالنتيجة وحتى يثبت العلم خلاف ذلك أهم وأثمن جرم سماويّ في الخلق، ونحن هنا الخلفاء، المسؤولون عن هذا الكوكب الفريد في الوجود الحسِّيّ، فما أعظمها من مسؤولية، وأجلّها وأدقّها، ولعلها الأمانة الكبرى، التي امتنعت السَّماوات والأرض والجبال عن حملها، اشفاقاً من جسامتها، لكن الإنسان ارتضى حملها:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا [الأحزاب: 72]

السُّلطة أو القوة من أهم ما يصبو إليه الإنسان، أو ربما هي الأهم بين كلِّ أهداف البشر، أو الكثير منهم على الأقل، يتنافس المتنافسون حولها، وتتصارع الأحزاب والجماعات لنيلها، وتتقاتل الأمم من أجلها، وإلى حد التطرف، فلا يتورعون عن التضحية بالنفس والجماعة أو حتى الملايين من أجلها، ولكنهم يجهلون أنّهم جميعاً يمتلكون هذه السُّلطة والقوة، في أرفع صورها، وأنقى وأجلّ أنواعها، ممهورة بتكليف خالقهم، فهم كلّهم خلفاء في الأرض، وكل مصادر القوة في متناول أيديهم، وإذا كان الملك يرث الحكم، والرئيس ينتخب بأصوات الناخبين، فالإنسان خليفة بتعيين من الله خالقه، فأيهم الأعظم؟

جعل الله الإنسان خليفة في الأرض، وسخر له ما فيها من خلق، من الأحياء والجماد، فهو راع ومسؤول عن رعيته، وآمر بالمعروف وناه عن المنكر، وكلّ المناصب مهما عظمت والوظائف مهما ارتفعت والمهام مهما تعقدت تصغر بالمقارنة بها، ولا تدانيها في الأهمية، ولا بد لنا من أدائها، كلّ

على حدة ومجتمعين، والتقييم في الدنيا والآخرة، ثواباً أو عقاباً، وليس من مهرب منها، إذ لا تتوقف أو تنتهي إلا بالموت أو ذهاب العقل.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [الاسراء:70]

تترتب على هذه التكريم بالخلافة واجبات ومسؤوليات، بين الفرد ونفسه، وبينه وبين الغير من أفراد وجماعات وبقية الخلق في الأرض من حيوان وطبيعة وموارد أو نِعَم. تتطلب الخلافة أن يصلح الإنسان نفسه، فكراً وسُلوكاً، ويمنعها عن الإفساد، وينهاها عن سفك الدِّماء أو التحريض عليه، ويوطّنها على فعل الخَير، والتحلي بالفضائل، وهو ليس الخليفة الوحيد في الأرض، فكلّ البشر مثله خلفاء، والمهمة فردية وجماعية في آن واحد، وحُسن أداءه متوقف على جودة أداء الآخرين، فهو ليس جزيرة وسط محيط، بل عضو في مجتمع، وواحد من جنس البشر، لذا يتوجب عليه التعاون مع الغير في أداء الأعمال الصالحة واحياء البشر والابتعاد عن الفساد وسفك الدِّماء، ليس فقط في مجتمعه الصغير أو بلده المترامي الأطراف بل على صعيد البشريَّة جمعاء، وبغض النظر عن معتقداتها، ما دامت مستعدة للعمل سوية في حمل مسؤوليات الخلافة، وما وصف العالم بالقرية الصغيرة إلا استنتاج على مبدأ الخلافة، إذ يدرك البشر اليوم بأنهم لا يصنعون حاضرهم ومستقبلهم لوحدهم، بل بالمعية مع كل البشر، فلو أن سكان بلد ما اضطرهم الفقر لقطع وبيع أشجار غاباتهم لتأثرت حياة البشر في أقصى بقاع الأرض.

ثالثاً: الإحياء الغاية العظمى

أثمن ما يمتلكه الأحياء هي الحياة، وتقتضي العقلانية أن يكون أول اهتمامات البشر الحفاظ على حياتهم، فلا يقاربه هدف أخر في الأهمية، وفي سبيل الحفاظ على الحياة فقد يكون المرء مستعداً للتضحية بكلّ شيء آخر، وإن كان بعض البشر يفكرون ويتصرفون أحياناً خلافاً لذلك، وبينما يضع الفرد قيمة مطلقة لحياته فقد لا يعترف لآخرين بذلك، وبالتالي فليس للجميع في نظره نفس الحقّ المطلق في الحياة.

حقُّ الحياة مكفول للجميع

حقُّ الحياة مبدأ أساسي بين الخلق، وأُنزلت الرسالات السماوية لتؤكد ذلك، وهو حقٌّ مطلق مع وجود بعض الاستثناءات القليلة، لأنّ الحياة صنع الخالق، قدَّر لها بداية ونهاية، وهيأ لها كافة مقوماتها، من ماء وهواء ودفء ورزق، وليس خلق البشر من باب العبث بل له مقاصد أو غايات، وبلوغها مرهون بوجودهم في الحياة، وغني عن القول بأن لو مات البشر أجمعين لتعطلت غايات الخلق ولن يكون هنالك أصلاً متلقين لرسالات السّماء.

الحياة أول وأهم حقٍّ للبشر، ومن دونها لا توجد حقوق أخرى، وكما أن الفرد حريص على حياته ينبغي عليه الحفاظ على حياة الغير، واعتراف الفرد بهذا الحقِّ لغيره ضمان لحياته أصلاً، إذ بدونه تصبح حياته مهددة، لذلك هي حاجة أساسية ومهما كانت درجة أنانية ونرجسية الفرد فلا بد أن يقرّ بها مع افتراض العقلانية.

الحياة حقٌّ لجميع البشر، وليس لأحد أن يسلبهم هذا الحقِّ من دون رخصة ربّانيّة، وهنا يستوي المؤمنون بالرِّسالة مع غيرهم من البشر، فلا يختص بها أتباع الرِّسالة، ولا فرق بين مؤمن وكافر، بل هي حقٌّ غير منقوص حتى للكافر المُصِرّ على كفره، وهو ما يتضح من قاعدة لا إكراه في الدين، وكما بينت آيات خلافة البشر لم يكن احتجاج الملائكة بنزعة البشر للفساد وسفك الدِّماء كافياً لعدم خلق البشر، فهم مستحقون للخلق ولو عمل البعض منهم خلافاً لأغراض الخلق وتعاليم الدين، فهم كلهم وبالولادة خلفاء في الأرض، فلا بد من ضمان حقّهم في الحياة ليؤدوا التكاليف الملقاة على عاتقهم، أما غير المؤمن فيمكن المجادلة بأنه وإن كان غافلاً أو رافضاً لهذه التكاليف فهو قادر على التعلُّم، والخلافة والتعلُّم مترابطان، وبقاؤه في الحياة شرط ضروري لتمكينه من تعلُّم الحقائق الخاصة بالخلافة وتكاليفها وتعاليم الدين السامية، فإن لم يكن اليوم فربما بعد حين.

للحياة البشريَّة قيمة وقدسية تعلو فوق غيرها، وإن كان تاريخ البشر دالٌّ على أنّ الكثيرين منهم لم يدركوا هذه الحقيقة البديهية، بل أنهم عملوا بعكسها، وكل الشرائع السماويّة أو بالأحرى فهمنا القاصر لها والقيم الإنسانية والقوانين الصارمة لم تثني الإنسان عن قتل أخيه الإنسان، ومنذ نشوء الجماعات الأولى وهي تتقاتل فيما بينها على الأرض والموارد، وازدادت ضراوة الحروب وتضاعفت أعداد ضحاياها بعد تكوين الدول والحكومات، ولم يكن المحاربون وحدهم ضحاياها، بل العزَّل أيضاً والنساء والأطفال ومواشيهم، وطال خراب الحروب وسائل الحياة من مساكن وحقول ومصانع وغيرها.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ [البقرة: 205]

لماذا النبيّ موسى مغموم؟

النبيّ موسى مغموم، عجباً كليم الله يغتمّ! وهو المؤيد بأنواع المعجزات، فماذا دهاه لكي يقع في الغمِّ؟
لأنَّ موسى قتل نّفساً، هكذا يخبرنا القرآن الكريم:

وَقَتَلْتَ نَفسا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ [طه: 40]

ارتكب موسى القتل بعد اصطفاءه، فهو مختار منذ الولادة، وبعد أن أتاه الله الحكم والعلم:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعلما وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ [القصص:14-15]

يبدأ سرد وقائع الجريمة بالتذكير بأن النبيّ المختار المحسن ذي الحكمة والعلم الرَّبانيّ، أي أفضل البشر على وجه الأرض قاطبة حينئذٍ، دخل المدينة فوجد رجلين يقتتلان، فما الذي حدث بعد ذلك:

فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ [القصص:15]

اصطفَّ موسى مع الرجل من شيعته فقضى على عدوّهما، موسى وشيعته مؤمنون، والقتيل كافر، فهل ارتفع صوت النبي وصاحبه بالتكبير؟ وهل استحق موسى بفعلته أفضل الثواب عند الله؟ بل العكس تماماً، وبشهادة القرآن الكريم، إذ يعزو القتل إلى تأثير الشَّيطان الذي أَضلَّه ودفعه لارتكابه، وكما تبين لنا الآية التالية:

قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ [القصص:15]

وأقرّ النبيُّ موسى بذلك مرة ثانية بعد سنين أمام عدوه فرعون:

قالَ فَعَلْتُهَا إذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ [الشعراء: 20]

امتدت يد موسى لتقتل، وتحت تأثير الشَّيطان المضلِّ، وهو حكم النبيّ على نفسه، وهذا شرط ضروري لطلب المغفرة:

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نفسي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [القصص:16]

ولو لم تكن فعلة موسى خطيئة لما احتاج لمغفرة الله، ومقابل الغفران قطع النبيّ على نفسه عهداً:

قالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نفسا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ [القصص:17-19]

كاد النبي أن يكرر فعلته بالأمس، تحت تأثير التحريض والعصبية العمياء، لولا أن جاءته موعظة، ومَمن؟ من الفرعوني غير المؤمن!

نقلوا عن بعض المفسّرين بأن موسى اغتمَّ بسبب خوفه من عقاب السلطة الفرعونية لا من كون قتل الفرعوني خطيئة، وهم بذلك يناقضون الحقائق القرآنية الواضحة، ويتغافلون عن طلب موسى المغفرة واعترافه على نفسه أمام فرعون بأنه كان ضالّاً عند اقترافه للجريمة.

لو لم تكن هنالك فائدة عظيمة من هذه القصة لما بينها الله في كتابه العظيم، وهي باختصار: أنَّ قتل النفس البشريَّة خطيئة كبرى من عمل الشيطان، حتى لو كانت كافرة مثل الفرعوني، وخطئاً لا عمداً كما في فعل موسى، وتستوجب الاستغفار والدليل استغفار موسى، وقد تترتب على مقترفها معاناة دنيوية كما حدث لموسى إذ اضطر للتغرب في مدين لسنين.

النجاة تعني الخلاص من الموت أو خطر عظيم، ويصف القرآن الكريم خلاص موسى من غمِّ قتل الفرعوني الكافر بأنه نجاة، وهذا دليل على جسامة هذا الغمِّ، والله هو الوحيد القادر بقبوله الاستغفار على أن ينجي القاتل من غمِّ القتل.

وَقَتَلْتَ نفسا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ [طه: 40]

عندما همَّ النبي موسى بقتل الفرعوني الثاني قال له:

إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُصْلِحِينَ [القصص: 19]

التجبَّر وليد الغرور بالقوة، وتغليب مصلحة الذات أو الفئة، والاستهانة بالحياة البشريَّة، ويتجبَّر الإنسان على غيره، فيظلمه، أي يسلبه حقاً، أو يعتدي عليه أو على أهله، وأقصى أنواع التجبَّر والتعسُّف قتل إنسان من دون حق، ولا تجتمع صفة التجبَّر مع الإصلاح، لأن التجبَّر هو نوع من الإفساد ومسوّغ له.

لا إيمان بدون حقِّ الحياة

إن أقبح إساءة إلى الخالق أن يدعي أحد بأن الله الذي أحيا كل شيء يدعونا لقتل البشر لأنهم لا يعبدون الله أو لأنهم لا يتفقون معنا حول كيفية عبادته، فمن المحال أن يأمر الله الذي خلق البشر للخلافة في الأرض بقتل من لا يؤمن به وبشرائعه في مرحلة ما من حياته، لأن ذلك مناقض أولاً لحقِّ كلّ البشر بالحياة، وينطوي ايضاً على حرمانهم من حقِّ أساسي آخر، وهو الحقُّ بالتعلُّم الذي فرضه الهدي الرَّبانيّ، والذي يبدأ عند الولادة وينتهي بالموت أو عند بلوغ البعض أرذل العمر:

اللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعلمونَ شَيْئًا [النحل:78]

فالإنسان عند الولادة غير محاسب على أفعاله لأنه كما وصفه الله لا يعلم شيئاً، ثم يبدأ التعلُّم من خلال العقل والحواس وتكون له فرصة الاستماع للهدي والتفكر به وربما الإيمان بالرِّسالة والعمل بموجبها، وتستمر مرحلة التعلُّم حتى الوفاة أو أرذل العمر:

وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعلم بَعْدَ علم شَيْئًا [النحل:70]

ما بين هذين الموعدين فرصة للفرد لكي يتعلّم، فالتعلُّم أول مستلزمات أداء تكاليف خلافة البشر، ومن دون تعلُّم لا توجد خلافة وبالتالي لا يمكن بلوغ غايات الخلق، وعلى هذا الأساس ينبغي تمكين البشر من الحقّ بالحياة وبالتعلُّم أيضاً.

فالتوحيد مثلاً وهو أول شروط الإيمان الصحيح برِّسالة الإسلام غير ممكن من دون حياة، أي أن الأحياء وحدهم يمكنهم توحيد الله وكما يستدل من الخطاب القرآني التالي:

إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (فاطر:22)

فإذا كان الموتى لا يسمعون الهدي فالواجب إذن الحفاظ على حياة كل النّاس ليستمعوا له ويستفيدوا منه، وقد يهتدي المشرك المحارب لله ورسوله بعد حين كما فعل أبو سفيان بن حرب وغيره، لذا يجب إعطاء الناس فرصة كاملة ليستمعوا للرِّسالة ويتعلموا ويدركوا بأنهم خلفاء مكلفون من قبل خالقهم بتحقيق أغراض عليا.

فداحة قتل إنسان

قتل نفس واحدة مساوي لقتل جميع النّاس، هكذا وصف القرآن الكريم قتل إنسان لم يرتكب جريمة قتل أو إفساد، إنه التعبير الأمثل عن فداحة فعل القتل، ولا يوجد تعبير آخر يزيد عليه أو حتى يضاهيه، فاليد التي تمتد لقتل إنسان من غير ذنب تطول أيضاً لتقتل الناس جميعاً، وعلى مَنْ يفكر بالإقدام على ذلك أن يتصور بشاعة ما يترتب عليه، وهو وانْ نجا من العقاب في الدنيا فسيحاسب على قتله الناس جميعاً يوم القيامة.

منْ قَتَلَ نَفسا بِغَيْرِ نفس أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا [المائدة:32]

يرد ذكر النفس في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وتدل على الذات البشريَّة المجردة، مؤمنة أو كافرة، والمثال على ذلك: [كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ] (آل عمران :185)، وقد تكون هذه النفس كافرة، كما يرد في الآية التالية: [فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفسهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) [التوبة:55)، وكذلك النفس الفرعونية التي قتلها النبي موسى: [وَقَتَلْتَ نفسا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ] (طه:40). وبالتالي فإن مصطلح النفس الوارد في الآية المتقدمة إشارة إلى النفس البشريَّة بالمطلق، ولا يوجد ما يؤيد انطباقها على الأنبياء أو الأئمة العادلين أو المسلمين حصراً، كما تأوَّل بعض المفسِّرين، فالنهي عن قتل النفس المحرمة ومن غير حقّ هو شرع شامل لكلّ البشر، وكذلك الدعوة إلى إحيائهم، ولا فرق هنا بين مسلم وغيره، وهو بلاغ سابق لنزول القرآن الكريم، وبالنتيجة فإن قتل النفس المحرمة سواءً كانت مؤمنة أو غير مؤمنة يعادل قتل الناس جميعاً، بما فيهم المؤمنون وغير المؤمنين.

لنفترض بأن الشيطان قتل آدم تهرباً من تنفيذ الأمر الرَّبانيّ بالسجود، وهنا يتبين لنا بوضوح بأنَّ وجود آدم على قيد الحياة هي الدلالة على عظمة خلقه أصلاً والداعي لاستحقاقه لسجود الملائكة، فحياة البشر هي معجزة كبرى وإنهاء هذه الحياة من دون حقّ إطفاء لهذه المعجزة الربّانيّة ومخالفة كبرى لمشيئة الله.

تتموج مياه البركة لو ألقيت حجراً فيها، وكذلك الحياة البشريَّة هي مثل مياه البركة الساكنة كيان واحد وقتل إنسان مثل رمي حجر فيها، وستشمل التموجات الناتجة عنه كلّ الحياة البشريَّة، ولكن في

فهمي الشخصي ينحو التشبيه القرآني إلى أبعد من ذلك بكثير، فلو قيل لأحد بأنّك لو لوثت قطرة ماء واحدة لتلوثت كلّ المياه العذبة وأصبحت غير صالحة للاستعمال فلن يقدم عاقل على ذلك، وقتل نفس بشرية بريئة أشبه بتلويث قطرة ماء ينتج عنها تلوث كلّ المياه العذبة فتموت البشريَّة عطشاً.

القتل سواء بتأثير شرور النفس المنحرفة أو الديانات الفاسدة خسران بالمطلق كما تبين الآيات التالية، فما أن قتل ابن آدم أخاه حتى أصبح من الخاسرين، وهو ما يزال في الدنيا وقبل الحساب في الآخرة، وحتى قبل أن يفتقد عون أخيه في قضاء عمل ما أو دفع خطر داهم، فهو أصبح من الخاسرين عند لحظة القتل، والقتل خسران له ولكلّ البشر لأن الحياة البشريَّة كيان واحد وقتل نفس واحدة ثلمة كبرى فيها لا تعوض.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفسهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ [المائدة:30]
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ علم [الأنعام:140]
وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ [الأنعام:137]

ويرد الأمر بالنهي عن القتل في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، إذ يحرِّم قتل الأبناء خشية الفقر ووأد البنات والقتل من غير حقّ والعدوان والفتن المؤدية إلى صراعات، كما ينهى عن الفُرقة والتشاحن والتباغض والتَّحاسد وكلّ أشكال الفكر والسُّلوك التي يمكن أن تفضي إلى إزهاق نفس بشرية، كما يفرض مبدأ أخوة المؤمنين والتعامل فيما بينهم على أساس من المودة والتعاون حتى يقلَّ احتمال حدوث خلافات بينهم.

كلّ الدين إحياء

تتبين الأهمية العظمى للإحياء في الدين من الآية التالية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ [الأنفال:24]

تؤكد هذه الآية وبصورة جلية كون الإحياء هو الغرض الأعلى للخلق، وكما تبين آنفاً من آيات خلافة الإنسان في الأرض، وهنا يساوي الوحي الرَّبانيّ بين الإحياء والدعوة، فالدعوة هي الإحياء، والإحياء هو الدعوة، وصفة الإحياء منطبقة على كل الدعوة، فلا يوجد في الدعوة جانب إحيائي وآخر لغير الإحياء، بل جميع ما في الدعوة من عقائد وحكمة ومعرفة وأحكام وعظات يخدم غرض الإحياء، بل هو الغرض الأساسي منها، والإحياء هنا لا يقتصر على الجانب الروحي بل يشمل الجانب المادي أيضاً، ومن البداهة أن الإنسان في الأرض يعيش حياة دنيوية، فيكون الإحياء بالتالي جوهر وغاية المعتقدات والعبادات والقيم الدِّينيَّة، وهنالك خط متواصل ومباشر بين عناصر الدين كلّها والإحياء، قصر أم طال، وسواء خفي علينا أم أدركناه، ففي النتيجة كل ما في الدين يقود إلى الإحياء بالضرورة، وعندما ينص القرآن الكريم على أن كل ما يدعونا إليه الله ويبينه لنا رّسوله الأعظم هو لفائدة إحياء البشر فلابد أن يكون الإحياء على رأس قائمة واجبات المؤمنين بهذه الدعوة وإن لم ندرك ذلك فالعلة في إدراكنا وفهمنا القاصرين.

أهمية الإحياء

عندما يخبرنا الخالق بأن كل ما يدعونا إليه في القرآن الكريم ويبينه رسوله هو الإحياء لا يبقى ما يقال للتأكيد على الأولوية المطلقة للإحياء في العقيدة، وللتأكيد على أهمية إحياء النفس البشريَّة وبيان

خطورتها وعظمتها يساوي الخالق بين إحياء نفس بشريّة واحدة وإحياء كل البشر، ولا يوجد في اللغة تعبير أكثر دلالة على أهمية إحياء البشر من هذا، وليس هنالك من الأفعال الحميدة ما يوازيه في الأهمية.

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً [المائدة: 32]

قد يستصغر البعض انقاذ نفس بشرية من الهلاك جوعاً، ولا يعير أهمية كبرى لمَنْ يتولى ذلك، ولكن الصورة تختلف عندما نطبق هذه الآية الكريمة على فعل إحياء واحد، فيصبح هذا الفعل ممتداً وشاملاً لكل الناس، فحياة البشر كما أسلفنا مثل كيان واحد مترابط، وإحياء جانب منه هو إحياء للكلِّ.

نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها (حديث نبوي)

مقومات الإحياء

للإحياء ركنان، أولهما الامتناع عن سفك الدِّماء أو التسبب بهلاك المخلوقات، والثاني العمل على إدامة واستمرار الحياة وتهيئة مقوماتها. يأمر شرع الله بالإحياء وحفظ النفس البشريَّة من خلال منع الأذى عنها ومساعدتها على مواصلة العيش، ويبين الطرق والأساليب الكفيلة بذلك، ومنها حلُّ الخلافات ومنع تفاقمها وتحولها إلى صراعات دموية، وإحلال السَّلام بين المتقاتلين بالحقِّ والعدل، والدفاع عن ضحايا العدوان، ومقاومة الحصارات الجائرة، وإغاثة ضحايا المجاعات، وكذلك انقاذ إنسان من أيدي سفّاح أو حيوان مفترس، ومساعدة مريض على التطبيب، وصرف إنسان عن الاقدام على الانتحار، وأحياناً قد تكون نصيحة طيبة أو لمسة يد حانية كافية لإنقاذ إنسان من الهلاك.

التعارف

للمجتمعات ثقافاتها وعاداتها المميزة، كما يتباين الأفراد في الفكر والاتجاهات والطبائع ضمن المجتمع الواحد، وكلها عوامل مؤثرة في السُّلوك، كما تؤدي هذه الفُروقات أحياناً إلى خلافات وصراعات، تهدد حياة الأطراف المشاركة فيها، لذا فقد اِستنَّ القرآن الكريم قاعدة أساسية للتعامل بين الأمم والشعوب والقبائل مختزلة في كلمة واحدة هي التعارف:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: 13]

ولا يكون التعارف ببيان الأصل العنصري أو القبليّ وإنما من خلال التواصل ليحصل كلّ طرف على معلومات وافية عن الطرف الآخر، وتتوضح لكل منهما هوية الآخر، وتختفي الصور والانطباعات والأفكار السلبية المسبَّقة والناتجة عن التعصب والجهل والمعلومات الخاطئة، وتتبدد مشاعر الشكِّ والقلق الحائلة بينهما، وكلما ازدادت درجة التعارف والمعرفة المتبادلة كلما اضمحلت احتمالات الخلاف والعداء، وبالنتيجة يتحول الناس من غرباء إلى معارف وربما أصدقاء، كما أن هذا التعارف المتخطي لحواجز الفُروقات في الثقافة واللغة والعنصر بين الأفراد والشعوب شرط ضروري لنشر دعوة الدين بين النَّاس.

سلمية الدعوة

خُلق الإنسان ليفكر ويختار، بما في ذلك الاختيار بين الإيمان والكفر، فلا يؤمن الفرد بالهدي الرَّبانيّ تلقائياً، ولو أراد الله أن يؤمن الناس جميعاً لجعل الإيمان فطرة أو استجابة لغريزة ملحة مثل الجوع والعطش أو لسد أبواب الكفر في العقل، ولكنه لم يشأ ذلك كما بينه في الآية العظيمة التالية:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [يونس:99]

والله يكره لعباده الكُفر، وينهاهم عنه، ويتوعدهم بالعقاب في الدنيا والآخرة لو كفروا، لكنه في الوقت نفسه لا يجبرهم على الإيمان، بل ترك لهم حرية الاختيار كما توضح الآية التالية:

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف:29]

وإذا كان الخالق لم يشأ إجبار البشر على الإيمان فلا يجوز لبشر أن يفرضه عليهم، بل يُعد ذلك مخالفة كبرى لأمر الله:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 256]

تأكيداً لهذا الأمر ينفي الرّسول عن نفسه دور الحفيظ على الناس، أي الرقيب أو الحارس الذي يمنعهم من الكفر، فهو أحرص الناس على تبليغ الرِّسالة وتبيانها للناس، لكنه ليس ضامناً لإيمان الجميع بها، بل تقع المسؤولية على عاتق كلِّ فرد وما يقوده تبصره إليه، فأما أن يبصر حقائق الهدي فيؤمن بها أو تعمى بصيرته عنها فيكفر، والنتيجة متوقفة على التفكر العقلاني وأهواء الفرد:

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنفسهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [الأنعام: 104]

والمؤمنون أيضاً غير مسؤولين عن هداية الناس، فهم وإن كانوا حريصين على نشر الرِّسالة وأن يكونوا قدوة في إيمانهم للغير لكنهم لا يحاسبون عن إيمان أو كفر غيرهم، ولا يصيبهم ضرر من كفر الغير:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنَّفسكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [المائدة:105]

استنَّ الله نشر الدعوة بالطرق السِّلمية وعدم جواز استعمال القسر في ذلك، وإكراه الناس على الإيمان مخالف لأمر الله وفطرة البشر، فلو أراد الله ذلك لما احتاج لبشر لتحقيقه، وبالتالي فإن القول بأن الله يريد من المسلمين نشر دينه بالقهر والإكراه والسلاح لا بالحكمة والموعظة الحسنة مخالف لمشيئة الله وانتقاص من قدرته المطلقة، كما أن الإكراه بطريقة أو أخرى يبطل عدالة المسائلة لأنّ المجبر لا يكتسب حسنة أو إثماً على فعل اِضطرَّ له، فكما أنَّ الكفر الذي أُجبر عليه الصحابي عمار بن ياسر لم يعدّه القرآن الكريم إثماً يحاسب عليه بل تقية حسنة بهدف حفظ أو إحياء نفس مؤمنة

كذلك لا يجازى الفرد على الإيمان الذي ينتج عن القسر والإكراه، بل هو على الأغلب نفاق، والمنافقون في الدَّرك الأسفل من النار، وعندما يخير الفرد بين الإيمان أو القتل أو حتى الجزية يُحرَّض على النفاق أو الموت خلافاً للإحياء الذي أراده الله أن يكون الغرض الأعظم للخلق قاطبة.

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل:125]

سافر الرسول الأعظم من مكة إلى الطائف ليدعو أهلها للإسلام، فرفضوا الدعوة وسبّوه ورجموه حتى أسالوا دمه، وفي طريق العودة إلى مكة بعث الله لنبيه رسولاً من الملائكة ليخبره بأنه لو شاء فسيطبق جبلا مكة على الكافرين، أي يهدم الجبلين فوقهم فيهلكهم أجمعين، فكان جواب الرسول:

بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً.

فالرَّسول رفض إهلاك الكافرين لا رجاءً بتخليهم عن كفرهم بل أملاً باهتداء مَنْ سيخرج من أصلابهم من أبناء وحفدة، وفي هذا الجواب البيان الواضح والدقيق من الله وبواسطة رّسوله لطبيعة الدعوة السلمية.

السَّلام

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام [المائدة:15-16].

أختلف المفسِّرون حول المقصود بالسَّلام في هذه الآية، فمنهم من قال بأنها تعني الإسلام ومنهم من اعتمد معناها اللفظي أي المُسالمة ونبذ الحرب والعنف، ويقود كلا التأويلين إلى نتيجة واحدة هي أنَّ الإسلام هو السَّلام والسَّلام هو الإسلام، وهذا يعيد إلى الذهن المساواة بين الدعوة كلها والإحياء، فالهدي الرَّبانيّ المبين في كتاب الله نور يهدي إلى طرق السَّلام والأمن.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [البقرة:208]

تضع هذه الآية المؤمنين أمام بديلين: الدخول في السِّلم أو اتباع الشيطان، فالسِّلم هو ما يريده الله لعباده ويأمرهم به ويدلّهم على سُبله، ويكون السِّلم بذلك نقيض ما يصنعه الشيطان من فتن وقتال وعدوان، والشيطان عدو بني البشر وهدفه من إغواء البشر حرفهم عن غايات الخلق وأداء مهام الخلافة، وبالتالي فإن من واجب الإنسان المُستخلَف في الأرض العمل على تحقيق السِّلم والحفاظ عليه باعتباره من أهم الواجبات المفروضة لبلوغ غرض الإحياء.

للسِّلم أولوية قصوى في الدعوة، وحتى لو فُرِض على المسلمين القتال دفاعاً عن أنَّفسهم فهم مكلفون بالجنوح للسِّلم لو توقف العدوان وكفَّ المعتدون أيديهم ولم يتجاوزوا على حقوق المسلمين:

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا [الأنفال: 61]

كما ينهى القرآن الكريم عن قتال من يقف على الحياد وإن كانوا من قوم يعادون المسلمين ويشنون عليهم الحرب، وبمجرد امتناعهم عن القتال وإلقاء السِّلم، أي إعلانهم السَّلام، لا يجوز للمسلمين قتالهم، لأن الأصل الرَّبانيّ في العلاقات بين الأفراد والجماعات في هو السِّلم لا الصراع والقتال.

إلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً [النساء:90]

وجعل الله كلمة السَّلام تحية طيبة يخاطب بها عباده المخلصين:

سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ[الرعد:24]
وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ[هود:69]
قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ [هود:48]

وتتكرر الإشارة إلى السَّلام للدلالة على أهميتها التي تتجاوز الرمزية إلى كونها تعبير عن النوايا الحسنة، إذ لا تكون العلاقات بين الأفراد والجماعات سوية وبناءة في ظل الشكِّ وتوجُّس كل طرف من نوايا الطرف الاخر، فالواجب حسن الظَّنِّ بالغير والإعلان عن ذلك جهاراً بإلقاء السَّلام عليهم، ويكفي ذلك لتخفيف أو حتى إزالة التوتر الذي يشوب العلاقات بين غرباء ويطرد من الأذهان الريبة والظن السَّيء لتحل محلها الثقة والاطمئنان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلام لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [النساء:94]

ولتسمية الجنة بدار السَّلام دلالة كبرى على أهمية السَّلام، فالجنة هي دار البقاء، حيث يعيش الصالحون من البشر حياة أزلية إلى ما شاء الله، وصفات الجنة مبينة في القرآن الكريم، ومنها تسميتها بدار السَّلام، ولا جدال في أن الخلود من دون سلام عذاب أبدي، إذ قد يتمنى الناس في الحياة الدنيا الفانية الخلاص من عذاب الحروب والصراع وما ينتج عنها من خوف وقلق بالموت، وقد يقدم البعض منهم على الانتحار هرباً من ترسباتها وآثارها في نفوسهم، فالسَّلام جوهر الحياة الأبدية في الآخرة، كما أن من أبرز خصائصها المذكورة في القرآن الكريم هي أيضاً من مقومات السَّلام مثل الأخوة بين نزلائها وتطهير فكرهم من الأضغان والتَّحاسد وخلو خطابهم من اللغو والتأثيم والتكذيب، ومن نتائج ذلك صفاء وسعادة النفوس الخالية من الخوف والقلق والحزن، وقد يحتج البعض بأنَّ التنزه التام عن كلّ هذه المشاعر والأهواء السلبية في الحياة الدنيا صعب المنال ولكن هذا لا يمنع من السعي وراء ذلك لتندر الحروب والصراعات، وتتحقق الغاية الأساسية من الخلق وهي الإحياء.

لَهُمْ دَارُ السَّلام عِنْدَ رَبِّهِمْ [الأنعام:127]
وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلام وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [يونس:25]
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا [مريم:62]
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة:25-26]
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا [النبأ:35]
يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [الزخرف:68]

حل الخلافات والنزاعات

تنشب الخلافات بين الناس وقد تؤدي بهم إلى الصراع وإزهاق الأنفس، وكلُّ الحروب التي شنَّها البشر على بعضهم البعض مخالفة للغرض الأسمى للخلق والدين، وتُعد أعظم الخطايا بحق الله والبشريّة، وللأهمية المطلقة للإحياء في الدين تضمن القرآن الكريم قواعد واضحة لمنع حدوث الخلافات وطرق حلها، ونجد في الآيات القرآنية إطاراً متكاملاً لفهم الخلافات ومنهجاً واضحاً لمنع حدوثها وتكرارها وحلِّها، ويتضمن هذا الإطار على العناصر التالية:

- قواعد التعامل بين الناس
- بيان مسببات الخلافات
- الاحتكام والتحكيم
- فض الخلاف والصلح العادل بين الخصوم
- التعامل الحازم مع الرافضين للصلح

الرِّسالة الرَّبانيّة شاملة وواقعية في تعاملها مع الخلافات، واهتمت بالوقاية منها كما بينت منهج حلِّها، ففي الجانب الوقائي حرصت على بيان حقوق وواجبات الفرد والجماعة ونظَّمت العلاقات الثنائية ومتعددة الأطراف، فلو التزم الجميع بالتعاليم واحترام حقوق الغير لما حدث اختلاف، والقاعدة العامة التي تحكم العلاقات بين أتباع الرِّسالة هي الأخوة الصادقة، وعلى أساس العقيدة الواحدة ووحدة المصالح، وعندما تطبق تعاليم الرِّسالة تحل الأخوة محل العداوة كما تبين الآية التالية:

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [آل عمران: 103]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام: 159]

فالأخوة الناتجة عن الاعتصام بحبل الله، أي القرآن الكريم، ضمان لعدم حدوث الاختلاف والتفرق، وهذه الحالة هي نِّعمة من نِّعم الله، مثل الطعام والماء والهواء، والاختلاف والتفرق هو جحود بنعمة التآلف والأخوة، وتنذر الآية التالية الذين يتفرقون ويختلفون بأشد العذاب:

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران:105]

كما كرَّهت الرِّسالة بالعداوة وقبَّحته في أعين أتباعها، فأضفت عليها صورة سلبية بالمطلق، إذ عزتها لتأثيرات الشيطان، ومن الواضح بأن الفرد المؤمن هو أقل عرضة وتقبلاً لهذه التأثيرات، فالخمر والميسر محرّمة لأنها وسائل شيطانية مؤدية إلى الخلاف والعداوة والكراهية بين المؤمنين، كما قد تجد هذه التأثيرات منفذاً من خلال الخطاب بين الناس لتعكر صفو العلاقات بينهم لذا فالواجب الاحتراس في الكلام بحيث يقتصر على الأحسن والطيب من القول.

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ [المائدة:91]

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا [الإسراء:53]

ولو وقعت إساءة من طرف فالأمثل هو رد الإساءة بالحسنة لا بإساءة مثلها، وقد تكون الحسنة مجرد إلقاء السَّلام على المسيء، مما قد يعيد المسيء إلى فطرته الطيبة ويتحول من عدو إلى صديق حميم:

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [فصلت:34]

لم تهمل الرِّسالة الرَّبانيّة احتمال وقوع الاختلاف بين المسلمين من أفراد وجماعات، ووضعت منهجية كاملة لفضِّ الخلافات، فالجميع مأمورون بالعمل على تحقيق الصلح بين طرفي أو أطراف النزاع وإعادة إحلال السَّلام والمودة والوئام بين المؤمنون الأخوة، ولا يوجد للخلاف حلٌّ سوى الصلح بين الأطراف المتنازعة:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الحجرات:10]
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بِيْنِكُمْ [الأنفال:1]

ويتحقق هذا الصلح بالاستناد إلى الأحكام التي أنزلها الله وقضى بها رَّسوله، ولو اتبع الجميع التعاليم والأحكام لما حدثت الخلافات بينهم أصلاً:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفسهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء:65]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [النساء:59]

والهدف من الصلح وضع حد للخلاف ومنع ديمومته واحتمال تحوله إلى صراع عنيف، وفي حالة حدوث ذلك فلا بد من المصالحة بين الطائفتين المتقاتلتين، ولو رفضت طائفة الصلح العادل المستند إلى الأحكام الرَّبانيّة وأصرّت على موقفها ومضت في القتال تكون باغية، وينبغي على الجميع حينئذٍ الوقوف ضدها وقتالها حتى لا تتسع هوَّة الصراع بين المسلمين، كما أن قتال الفئة الباغية رادع ضروري لمنع تكرار ذلك:

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات:9]

كما أن الصلح لا ينطبق فقط على الخلافات بين المسلمين، والدليل على ذلك هو صلح الحديبية بين المسلمين وكُفّار قريش، إذ أتاح للمسلمين نشر الدعوة بالطرق السلمية ومن دون قتال وكفاهم شرور قريش.

الجهاد دفاع

للجهاد معاني متعددة في الدين، تشمل مجاهدة النفس ومنعها عن اتباع الأهواء والمعاصي، وهو ما يعتبر جهاداً أكبر، وبالتالي يندرج ضمن وسائل إصلاح وإحياء النفس في منظورنا، ومن أنواع الجهاد أيضاً برُّ ورعاية الوالدين، والدعوة للرِّسالة جهاد أيضاً، إذ يأمر الله رسوله في الآية التالية بجهاد الكافرين بوسيلة القرآن الكريم:

فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا [الفرقان:52]

وكتاب الله العزيز هو العلم الرَّبانيّ وأطيب الكلام وأحسن المواعظ الكفيل بدحض أباطيل الكافرين وبيان شطط معتقداتهم والهادف لتعلّيمهم كل ما يحيهم ويصلحهم أفراداً وجماعات، بشرط أن لا يغلقوا عقولهم ويتبعوا أهواءهم ويتعصبوا لعقائدهم وسننهم الموروثة الباطلة والمحرفة، وفرض الله على رّسوله ذي الخلق العظيم بذل كل ما يملك من قدرات وطاقات في تبليغ الرِّسالة التي يتضمنها القرآن الكريم، أي مقارعة الكُفَّار والمنافقين بالحجج والأدلة العقلانية التي لا يرقى لها الشكُّ، فالقرآن الكريم هو سلاح الرسول والمؤمنين الوحيد في دحر عقائد الكافرين والمنافقين والدفاع عن العقيدة، كما يتأكد في الآية التالية:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ [التوبة :73]

ومن المعرف تاريخياً أنَّ الرّسول لم يحارب المنافقين لذا يمكن الاستنتاج من الجمع بين الكُفّار والمنافقين بأن المقصود هو الجهاد بالقرآن الكريم. والجهاد القتالي لا يكون إلا دفاعاً عن المسلمين وديارهم ومقومات بقائهم، وهو صد لعدوان وعقوبة على معتدين، فلا يجوز للمسلمين أن يكونوا البادئين بالعدوان أو الحرب، أي عليهم قتال من يقاتلهم فحسب، فلو قاتلهم كافة المشركين لتوجب على المسلمين أجمعين قتالهم، وبالذات الكُفّار الأقربين لديار المسلمين، والمستثنون من ذلك المشركون الداخلون في عهود سلمية مع المسلمين وكذلك المستجيرون بالرسول والمؤمنين، وحرّم الشرع المقدس القتال في الأشهر الحُرُم إلا دفاعاً عن النفس، ولو أوقف الكافرون عدوانهم فالواجب على المسلمين مقابلة ذلك بالمثل والكفُّ عن القتال، فالجهاد هنا ضروري لإحياء المسلمين والحفاظ على مقومات عيشهم، والبادئ بالقتال مستهتر بحق البشر بالحياة ومفرِّط بحقه بالحياة أيضاً.

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعلم بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ [النحل:125-126]

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين [البقرة:190]

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعلمواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِين[البقرة:193-194]

وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [التوبة:36]

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعلمونَ [التوبة:6]

إلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [التوبة:4]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [التوبة:123]

وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنفسهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [العنكبوت:6]

وتضمن الهدي الرَّبانيّ وصايا كفيلة بوقاية المؤمنين من العدوان والقتال، ويتطلب ذلك منهم أولاً الالتفاف حول عقيدتهم وتوحيد كلمتهم والتآلف فيما بينهم وتجنب كل ما يزعزع أو يضعف هذا التآلف من عصبية للعنصر أو الجماعة وظلم واضطهاد وأَثَرَة، كما نهاهم عن الاختلاف والتنازع لأن ذلك سيؤدي حتماً إلى تبدد قوتهم:

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ [الأنفال:46]

ومن أجل ردع الأعداء من شن العدوان عليهم وصرفهم عن التفكير بذلك أوصى القرآن الكريم المسلمين بالاستعداد لصدِّ أيّ عدوان محتمل من خلال تهيئة القوة الكافية من مقاتلين وسلاح:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعلمونَهُمُ اللَّهُ يَعلمهُمْ [الأنفال:60]

وعندما تتوفر هذه الوسائل السلمية فسيضمحل احتمال تعرضهم للعدوان ولأطماع الطامعين.

الإحياء في القصاص

القاتل عن عمد وقصد مخالف لأمر الله بالإحياء، فلو تُرك من دون عقاب لربما عاد لقتل المزيد من البشر، وهو ما نراه في سير الطغاة وعُتاة المجرمين من المسلمين وغيرهم، كما أن التهاون في عقاب القاتل تشجيع لغيره لارتكاب جرائم القتل، وعقوبة القاتل عن عَمْد هي القتل، وهي استثناء على الغرض الأسمى للخلق أي الإحياء، لذلك اهتم القرآن الكريم ببيان فائدة أيقاع حد القتل على القاتل، فاعتبر ذلك إحياءً، أي أن قتل إنسان عقاباً له على ارتكاب جريمة القتل هو إحياء لبقية الناس، لأنّه يضع حداً لجرائمه ويردع أخرين عن فعل مماثل:

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة:179]

إحياء المخلوقات الأخرى

لا يتعلق الإحياء بالبشر فقط، بل يشمل أيضاً المخلوقات الأخرى، الحيّة منها وكذلك الجماد، لأنَّ كلَّ الخلق بحاجة للإحياء بشكل أو آخر، وللمخلوقات الحيّة من حيوان ونبات فوائد للبشر والخلق على الأرض، والله لم يخلقها عبثاً، لذلك أحياؤها واجب، وللجماد أيضاً حياة من نوع مختلف، وتربة الأرض على سبيل المثال قد تكون صالحة للزراعة أو تتصحر فتتوقف "حياتها"، كما تتفاوت خصوبة الأرض المزروعة نتيجة التفاعلات الكيماوية في مكوناتها، وتبين الآيات التالية والحديث النبويّ هذه المعاني:

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الروم:19]
وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم:24]
فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الروم:50]
اعلموا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الحديد:17]
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة:164]
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [العنكبوت:63]
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير [فصلت:39]

دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض (حديث نبوي)

رابعاً: الإصلاح الغاية العظمى الأخرى

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ [هود: 88]

بكلمة واحدة اختزل النبي شعيب رسالته، وهي ليست دعوة النبي شعيب وحده، بل كلّ الأنبياء والمرسلين، وهي الغاية المشتركة، الجامعة لكل الغايات الحسنة، ولا أحد منا ينكرها، المصلحون حقاً والمتظاهرون بالإصلاح، وحتى المفسدون يدّعونها زوراً، فلا جدال حول تقدمها على كل الغايات.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِين [الأنعام:85]
وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ [الأعراف:142]
وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران:46]

الإصلاح في الإسلام نظام متكامل، يتضمن عناصر وعوامل متفاعلة، من القيم والفكر والسُّلوك، ويكوّن بمجمله الجانب الأكبر من الوجه المشرق من الحياة البشريَّة، وبالمقابل والنقيض منه هنالك الوجه المظلم للفساد، وبقدر ما ينحسر أحدهما يتوسع الآخر، والإصلاح شامل للفرد والمجتمع والطبيعة، وخال من التناقضات والتزاحم على الأولويات، ويتحرك في نسق تام بين جميع أنواع الإصلاح، وان تباين المنتفعون منها أو مواقعها وأزمنتها، فلا إصلاح للفرد على حساب المجتمع أو الطبيعة أو بالعكس، ولا يكون إصلاح جيل اليوم على حساب أجيال لاحقة، أو مجتمع ما بتضحيات مجتمعات أخرى.

من خصائص الإصلاح في الإسلام الاستمرارية والدوام، فكما أن الإصلاح بدأ مع أول البشر فهو لن ينتهي إلا بزوال آخر البشر، متواصل بدون انقطاع، ينتقل من صلاح إلى أصلح، وليس هنالك من عصر ذهبي، يحنُّ الناس له، ويتحسرون على انقضاءه، والاعتقاد بذلك نقيض للتفاؤل، ودعوة للتوجه نحو حقبة ماضية، ومحاولة إعادة إحياءها أو استنساخها، ومن المؤكد أن لعهد الرِّسالة مزايا كثيرة غير خافية، لكن لا عودة بالتاريخ إلى الوراء، بل الواجب التحرك نحو الأمام، وأن يكون كلّ غد أصلح من اليوم والأمس.

ولا توجد في نظام الإصلاح الإسلامي مدينة فاضلة، هي مثالية أو أقرب إلى المثالية، قابلة للتحقيق بجهود بشر عاديين، يكون الفرد والمجتمع والطبيعة فيها عند أعلى درجات الإحياء والإصلاح، ويتوقف الإصلاح عند بلوغها، وذلك لتناقضها مع مبدأ استمرارية الإصلاح، وانطوائها على تعطيل للإصلاح، كما أن الادعاء بقدرة السَّابقين أو اللاَّحقين على معرفة صفات الحالة المثالية مخالف للمنطق وطبيعة تطور البشر، وكما أن السَّابقين لم يتنبؤوا بإيجابيات الحاضر، كذلك فإن المعاصرين لا يعرفون على وجه اليقين ما سيتحقق في المستقبل.

الإصلاح مفهوم أشمل وأعمُّ من مفهوم التطوُّر، وهنالك مشتركات عدة بينهما، والاختلاف بينهما في الضوابط، فبينما تتحكم القوانين والقرارات السياسية والمؤسسات بالتطوُّر الشامل يخضع الإصلاح للضوابط الدِّينيَّة أيضاً، والتي هي بمجموعها شروط قيمية وأخلاقية، ينبغي الالتزام بها في عملية الإصلاح أو التطوُّر، مثل العدالة والمساواة والحرية واحترام الحياة البشريَّة والحفاظ على النعم والتكافل. ولا صلاح للمجتمع مع الفقر والمرض والجهل، وبسببها تضمحل مناعة المجتمع ضد الفساد والصراع، والعدالة عنصر أساسي في إصلاح المجتمعات، وبوجودها تطمئن النفوس، ويتبدد القلق، ويسود الأمن، وينتشر التفاؤل، وتزداد الثقة بالآخرين، وتتوطد الأواصر الاجتماعية، وانحسار

العدالة يترك فراغاً، في نفوس الأفراد وبنية المجتمعات، يملأه الخوف والتشاؤم وسوء الظَّنِّ والسُخط والحسرة، وهي كلها مظاهر للفساد الفردي والاجتماعي، ومقدمات أو محفزات على الفتن والعنف وسفك الدِّماء.

كلّ ما في الأرض قابل ومستحق للإصلاح: الأفراد والمجتمعات والطبيعة، والإصلاح واجب على الفرد، بل هو حاجة ضرورية، تفرضها اعتبارات المصلحة البحتة، ولأنه محكوم بالمجتمع الذي يعيش فيه ولا يستطيع فكاكاً من تأثيراته المباشرة وغير المباشرة فهو معني أيضاً بإصلاح هذا المجتمع، لكي يكون حاضناً ودافعاً للإصلاح، وبنفس المنطق يسري اهتمامه بعد ذلك على المجتمع البشري بأكمله، وفي الدائرة الكبرى من اهتمامات الفرد الإصلاحية توجد الطبيعة، التي يتنفس هواءها ويحصل منها على غذاءه وتهدده أخطارها:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا [الأعراف:56]

ولا يقتصر الإصلاح على البشر، بل يشمل كلَّ المخلوقات، من أحياء وجماد، ومهمة البشر الخلفاء الحفاظ عليها في حالة صالحة، لأنها مستحقة للإصلاح بحد ذاتها، ولكي ينتفع البشر منها، وتكون بيئة صالحة لحياتهم والأجيال اللاّحقة، وبعد الإصلاح لا يجوز الإفساد، بل الواجب المزيد من الإصلاح.

الإصلاح والإفساد

الإصلاح قمة الإيجابية، وخلافه الإفساد قعر السلبية، وهي مسلَّمات لا خلاف حولها، لكن في الواقع لا يوجد إجماع بين الناس حول ماهية الإصلاح والإفساد، بسبب تأثير الاعتبارات المصلحية والأهواء، فعلى سبيل المثال قد يرى أعوان حاكم مستبد في طغيانه مصلحة نسبية، لما يحققه من استقرار وردع للفتن والفوضى، لذلك يشرّعون موالاة الحاكم والسكوت على ظلمه، بينما يرى معارضون حكمه إفساداً وشراً مستطيراً، ويصف القرآن الكريم جنوح بعض الحكام والأفراد إلى الفساد والإهلاك:

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ [البقرة:205]
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [القصص:4]

كما نجد تشخيصاً في غاية الدِقَّة للفهم النسبي والمتأثر بالمصالح والأهواء لمفهومي الإصلاح والإفساد في الآية التالية:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ [البقرة:11]

والمثال على ذلك في موقف أخوة يوسف من قتله أو ابعاده عن ديارهم، فهم اقتنعوا بأن أباهم النبيّ يعقوب على ضلال لأنّهم كما تصوروا يفضلّ يوسف عليهم، وانطلاقاً من هذه النظرة الأنانيّة المصلحية سوّلت لهم أنَّفسهم التخلص من أخيهم، والقتل وسفك الدِّماء أسوء أنواع الإفساد، وهو أمر قد لا يكون خافياً عليهم، وانتهوا مدفوعين بالحقد على أخيهم والحسد من مكانته لدى أبيهم إلى

الاقتناع بأنَّ التخلص من يوسف سيجعلهم قوماً صالحين، أي أنهم اعتقدوا بأن الإفساد بأفظع أشكاله سيؤدي إلى الإصلاح، أو هو شرط ضروري لتحقيقه، وهو تناقض فاحش:

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [يوسف:9]

يوجد ارتباط وثيق بين الإهلاك وسفك الدِّماء والإفساد، فالحروب قتل جماعي ومن يثيرها ويؤججها مفسد بالضرورة، كما تبين الآية التالية:

كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِين [المائدة:64]

وفي النتيجة فإن كل أصناف الفساد من صنع البشر، وهي محصلة للأعمال السيّئة بما في ذلك مخالفتها للحقوق والقيم والمبادئ الرَّبانيّة مثل الإحياء والعدالة والمساواة والتكافل، والتي تشكل بمجموعها عهداً أو ميثاقاً بين الخالق والبشر، وهم يجنون على أنَّفسهم بإفسادهم وبالتالي يصبحون من الخاسرين:

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم:41]

الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [البقرة:27]

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ [المؤمنون:71]

وحتى لا يستفحل الفساد فتفسد الأرض بما فيها من مخلوقات وطبيعة، وتصبح غير صالحة للحياة، اِستنَّ الخالق مبدأ التدافع بين المفسدين والمصلحين، والإصلاح مسؤولية جميع البشر، ولا يشترط الإيمان بالهدي ليكون الفرد مصلحاً، فالإصلاح عنصر أساسي في مهمة الخلافة التي كلفَّ الله جميع البشر بأدائها، لكن المؤمنين المخلصين لرِّسالة الإسلام هم أكثر الناس حرصاً وتطبيقاً للإصلاح، والذين ينبرون لكشف الفساد وصُنّاعه وأدواته ويحذرون الناس من مغبَّته ويحببون لهم الإصلاح:

وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [البقرة:251]

المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيبًا أصلحه (حديث نبوي)

إنَّ الإسلامَ بدَأ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدَأ فطُوبى للغُرَباءِ قيل ومَنِ الغُرَباءُ قال الَّذينَ يَصلُحونَ إذا فسَد النَّاسُ (حديث نبوي)

إصلاح الذات

مفهوم الإصلاح الفردي في الإسلام شامل، وهو منتهى الأنانية وذروة الإيثار أيضاً في ذات الوقت، ومن دون تناقض، لأنَّ إصلاح النفس هدف أنانيُّ بحت، ينتقل بها من الجهل إلى المعرفة، ومن الطفولة والمراهقة إلى الرُشد، ومن التلمذة إلى الأستاذية، ومن الهواية إلى الحرفة، ومن الغفلة إلى الحكمة، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن العُزلة إلى التآلف، ومن العدائية إلى السلمية، ومن سوء المعشر إلى لطف الرفقة، ومن السخط إلى الرِّضا، ومن العوز إلى الكفاية.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [الأعراف:189]

المستفيد من الإصلاح الذاتي هو الفرد أولاً، وإن لم يكن ذلك على حساب آخرين أو المجتمع فستعّم الفائدة منه الآخرين والمجتمع وربما البشريَّة أجمعين، لذلك إصلاح الذات غاية الفرد والمجتمع أيضاً، والواجب على الجميع مساعدة الفرد على إصلاح نفسه.

لصلاح الفرد معايير دالّة، تتبناها المجتمعات المعاصرة، منها احترام وتطبيق القوانين، وتطوير المعارف والخبرات، والاقبال على العمل والانتاج، والاهتمام بأحوال الآخرين بقدر الاستطاعة، وهي كلها إيجابيات يحثُّ عليها الدين، لكنه يهدف بالإصلاح إلى أبعد من ذلك بكثير، فالصالح لنفسه ولغيره، يصلح نفسه ويعمل الصالحات من القول والفعل، لذا يقترن العمل الصالح مع الإيمان، فلا يكتفى بواحد دون الاخر، والصلاح هو الدليل المادي على الإيمان، كما إن الإيمان هو السبيل المنهجي والقويم لتبيان العمل الصالح والتطبع عليه، ومن دون ذلك فقد تتخلخل معايير الحكم والتمييز لدى الفرد، فيتصرف بأنانية شديدة، من دون اعتبار للغير، فيقترف الفساد والإفساد، أو في أحسن الأحوال يخلط العمل الصالح بالطالح.

الفرد معني بإصلاح نفسه أولاً، من خلال التعلُّم الشامل لكافة مستلزمات الحياة المنتجة والطيبة، داخل وخارج العائلة وفي العمل والمهنة، من عقائد وفكر وسُلوك ومعرفة، ليكون كل ما يصدر عنه من قول وفعل صالحاً، وأن يأخذ بزمام أموره، وأن يكون قائداً لنفسه لا منقاداً، أصيلاً لا مقلداً، وينشط في الاهتمام بشؤون غيره، وهو بصلاحه يساهم وبدرجة ما في رفع منسوب الصلاح في المجتمع، وكلما ازداد عدد الصالحين في مجتمع ازداد صلاحه، وهذه القاعدة أساس لاحتساب العديد من معايير ومقاييس الصلاح المجتمعي النسبيّ، مثل معدلات المُتعلمين والأطباء والمهندسين والعلماء والمبدعين وأصحاب المهارات، وارتفاع هذه المؤشرات الاحصائية دليل على ارتفاع درجة الصلاح أو التطوُّر في المجتمع، كما أن انخفاض حالات الإفساد مثل أعداد ونسب جرائم القتل والسرقات والرشوة والاختلاس دليل على ذلك أيضاً.

البقاء للأصلح مبدأ علمي، وهو أساس التطوُّر، والمدخل للتقدم، ويتطابق في المفهوم العام مع دعوة الإسلام، ولكن مع التباين في تعريف الأصلح، إذ يقترن في المنظور غير الإسلامي بالقوة والثروة والمكانة الاجتماعية، ومن دون اعتبار كبير للعقيدة والقيم والأخلاق، أما في الإسلام فالأصلح هو الأكثر علماً ونفعاً لنفسه وللغير وبشرط التمسك بالعقيدة والقيم والأخلاق، وهي غايات في متناول الجميع، أي أن جميع البشر هم الأصلح، بالفعل أو بالقدرة، لأنهم جميعاً خلفاء، ولديهم القدرة على التعلُّم، وباستطاعتهم إصلاح أنفسهم، كما أن عليهم واجب مساعدة غيرهم على إصلاح أنفسهم، ليكون الإصلاح حالة عامة، ويتحقق وعد الله بوراثة الصالحين للأرض:

أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء: 105]
إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ [الأعراف:170]
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل:97]
يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ [الأعراف:35]
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [هود:23]
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة:82]
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ [الرعد:29]

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا [الإسراء:9]

الاستقامة والتوبة

وضع الإسلام منهجاً ذاتياً للفرد لكي يصلح سُلوكه بنَّفسه باعتماد ما أسماه "النَّفس اللَّوَّامة"، وهي بمثابة ناقد أو رقيب داخلي على سُلوك الفرد، يلومه ويعاتبه ويزجره إذا أخطأ أو حاد عن الصواب والاستقامة، ويحثه على العودة إلى الطريق السوي. وعندما ينحرف الفرد ويقترف سُلوكاً منحرفاً، فإن نتيجة ذلك تكون واحدة من اثنتين، أما المعاندة واستمرار الانحراف أو اللّوم الذاتي والندم وتصحيح أو إصلاح الفكر والسّلوك، وتتضح أهمية ومرتبة النَّفس اللّوّامة في قَسم الله بها:

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [سورة القيامة: الآية 1-2]

بعد الندم والتوبة ينبغي على الفرد إزالة الآثار السيّئة الناتجة عن أخطاءه، مثل رد المال المسروق أو الملك المغتصب والاعتذار إلى الفرد الذي أساء إليه بالقول والفعل، ومن ثم المداومة على أداء مهام الخلافة من إحياء وإصلاح وتعلّم، وبهذه الطريقة تقود النَّفس اللّوّامة صاحبها إلى الطريق السويّ، ليعود فرداً إيجابياً منتجاً ينفع نفسه والآخرين، كما أنّها تزيل مشاعر النفور والكراهية والعداوة بينه وبين الذين أساء إليهم وتنمي محلها الود والتآلف، وتنطوي على علاج ذاتيّ للنَّفس، فمن خلال إصلاح النَّفس وطلب الصفح والمغفرة يتخلص الفرد من الشعور بالذَّنب وتأنيب الضمير، وما يصاحبه أو ينتج عنه من تعقيدات نفسيّه تعكر صفو تفكيره وعلاقاته وعمله، لذا يعمد المحللون النفسيون على مساعدة المصابين بعقد الذّنب من خلال تشجيعهم على مكاشفة النَّفس بمسبباتها ومن ثم معالجتها، أما النظام الإسلامي فيعتبر الفرد قادراً على القيام بذلك بنفسه بشرط أن يكون فرداً مؤمناً، لديه نفس لّوّامة، ومستعد لتبرئة ذمته من الخطأ والانحراف ليعود إلى الاستقامة مرة أخرى، والتوبة خطوة أساسية للخروج من منزلق الانحراف إلى الطريق السويّ كما تبين الآيات التالية:

فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [المائدة:39]
وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نفسهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [الأنعام:48]
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [النحل:119]
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [النور:5]

إصلاح المجتمع

صلاح الفرد رافد ونتيجة لصلاح المجتمع، وفي المجتمع الصالح سيزداد احتمال أن تكون العائلة صالحة، والعائلة الصالحة هي الأقدر على تربية أفراد صالحين، وبذلك تكتمل الدائرة، ويعود صلاح الفرد بالنتائج الإيجابية على الفرد نفسه، إن كان هو بالذات أو أبناءه وأحفاده.

الفرد في الإسلام مسؤول وحده عن أفعاله وأقواله، يحاسب عليها، ولا يُسأل عما يقترفه غيره، فلا تشترك معه العشيرة في الجريرة، كما يقضي بذلك العرف القبليّ، فهو إن كان صالحاً فلنفسه وإن

كان فاسداً فعليها أيضاً، والفرد وإن كان لا يتحمل جريرة غيره أو يكافأ على فضائل غيره لكنه في المنظور الإسلامي يتحمل مسؤولية اجتماعية، تفرض عليه المساهمة الفعالة في إصلاح مجتمعه، فمن المعروف أنَّ العامل الثاني الرئيسي المؤثر في فكر وسُلوك الفرد – بعد العائلة – هي البيئة الاجتماعية المكونة من المدرسة والأصدقاء والجيران والأقران ومؤسسات العمل وغيرها، فإذا كانت التأثيرات التي تمارسها هذه المؤسسات والجماعات حاثّة على الصلاح والقيم والأخلاقيات المرتبطة به فعلى الأغلب سيكون أفراد المجتمع صالحين ومُصلحين، ولا بد أن يعمّ ذلك الجميع، فمن المحتمل أن تذهب أدراج الرِّياح كلّ الجهود التي تبذلها بعض العائلات في تربية وتنشئة أبناءها ليكونوا مستقيمين ومنتجين بعد التحاقهم بالمدارس، ووقوعهم تحت تأثير رفاق السُّوء، لذلك ينبغي على الأفراد أن ينشطوا في نشر الإصلاح من خلال القدوة الحسنة والتوعية وتقديم النصح والإرشاد للمسيئين، وحتى التصدي لهم وإيقافهم ومنعهم من التمادي في غيّهم حتى لا تنعكس تصرفاتهم سلباً على الآخرين، ، تطبيقاً لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بد لهم من المساهمة في القضاء على جذور الإفساد الكامنة في الجهل والمرض والفقر، ويكون التسلسل في الاهتمام والمسؤولية عن الإصلاح الملقاة على عاتق الفرد تجاه المجتمع ومؤسساته من العائلة إلى الجماعة والمجتمع والأمة المسلمة ومن ثم البشريَّة كلها.

الإصلاح مطلوب على كل المستويات الاجتماعية، في العلاقات بين فردين أو فئتين أو المجتمع بأكمله، وهنالك حاجة مستمرة للارتقاء بالعلاقات الثنائية بين زوجين نحو الأحسن، إذ تحتم غاية الإصلاح العظمى على الزوجين الحفاظ على الود والتفاهم بينهما، والعدل في المعاملة، والإحسان والفضل، وحل الخلافات بينهما بالعدل وتغليب العفو والإحسان. وتبرز الحاجة على مستوى الجماعات للإصلاح أيضاً، في حسن التعارف بينهم، والاحترام المتبادل لا السخرية والتعالي، والتعاون فيما بينهم على البرِّ والتقوى لا الإثم والعدوان، والوقوف معاً ضد المعتدين، وإحلال التفاهم والسَّلام لا الخلاف والقتال، والمساهمة في تنمية وازدهار المجتمع.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: 114]

خامساً: التعلُّم الوسيلة الكبرى

الخلافة والتعلُّم مترابطان، كما يبين لنا القرآن الكريم، لولا التعلُّم لما كانت هنالك خلافة، والإنسان مكلَّف بالخلافة، وهي التكريم الأعظم والمسؤولية الجسيمة، ولعل أوَّل عمل لأوَّل البشر كان التعلُّم، عندما علّمه الخالق البارئ الأسماء كلها، واختبر معرفته بها، ونجح في الاختبار، وكان هذا النجاح أول إنجاز يشعر بلّذته.

وكما أنَّ التعلُّم كان أول عمل يؤديه أوَّل البشر فقد كان التعلُّم أوَّل تكليف للبشر في القرآن الكريم:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ [العلق: 1]

الإنسان ظلوم وجهول كما يصفه القرآن الكريم فلماذا كلَّفه الله بحمل هذه الأمانة؟ لدى الإنسان كلّ القدرات اللازمة لحمل الأمانة الثقيلة، وتولي أعباء الخلافة ومسؤولياتها الجسام، من عقل يقظ وحواس سليمة وطاقات بدنية، ثم إن خالقه لم يتركه فريسة سهلة للأهواء، فاصطفى من بني البشر أنبياءً ورسلاً، وأنزل عليهم الهدي، ليبينوا للناس الصِّراط المستقيم، ويصححوا انحرافاتهم، ويذكرونهم بمسؤولياتهم كخلفاء في الأرض.

العقل للفهم والتمييز، والهدي لبيان النهج، والعنصر الثالث الضروري هو التعلُّم، ومن دون تعلُّم تكون الاستفادة من العقل منقوصة، وكلما ازداد التعلُّم تحسنت قدرة العقل على الفهم والتمييز، كما أن التعلُّم ضروري لاستيعاب وفهم الهدي أو النهج الرَّبانيّ، والمعرفة الناتجة عن التعلُّم تراكمية، من يوم إلى آخر، ومن جيل للأجيال التالية، وعندما تتفاعل هذه العناصر الثلاثة، أي العقل والهدي والتعلُّم، تتولد المعرفة الصحيحة ويقل بالنتيجة جهل وظلم الإنسان، ويصبح أكثر قدرة على تولي مهام الخلافة في الأرض.

الخلاصة هي أن لا خلافة بدون تعلُّم، وإن لم يكن الإنسان خليفة في الأرض، ويتولى أعباءها كما أراد الله، فهو مفسد وسفاك للدماء بالضرورة، وتاريخ البشريَّة البعيد والقريب شاهد على هذه الحقائق.

المعرفة من منظور إسلامي

يتأكد بالرجوع إلى الآيات القرآنية تعدي مفهوم المعرفة لما يعرف بالعلم الدينيّ من تفسير وفقه إلى كلّ المعارف، وهذه المعارف المختلفة ضرورية لأداء مهام الخلافة من إحياء وإصلاح على أحسن وجه، فالواجب هو الحصول على أرقى وأحدث المعارف والعلوم في مختلف الحقول، عن طريق اكتشافها وتطويرها أو اكتسابها من الغير، ومن ثم تطويعها وتطبيقها لفائدة ورقي المجتمع ورضا وسعادة أفراده، وهي مسؤولية فردية وجماعية.

أهمية المعرفة

يرفع الهدي من أهمية المعرفة وقيمتها إلى مصاف الصفات الإلهية، إذ يربط بين انفراد الخالق بالعلم الكامل وبين قدرته المطلقة، وهي من الحجج الدالّة على أحقِّيَّته بالعبادة وحده دون غيره، وبينما

تؤكد الأديان الأخرى على قوة وغضب وانتقام الإله، والتي تفرض على البشر مخافته واتقاء سطوته والتقرب إليه بالقرابين وغيرها، يؤكد الخطاب القرآنيّ على معرفة الله التامّة التي تحتم طاعته كما تبين الآية التالية:

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعلم مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [النمل:25]

كما يوصف القرآن الكريم كله بالمعرفة، وتقترن المعرفة بأسمى الصفات والقيم الإيجابية المرغوبة مثل النور والخير والصلاح والعدل، والمعرفة ضرورية للإحياء وديمومة الحياة البشريَّة، وهي الطريق الوحيد لإدراك الخالق الواحد وضرورة إتباع المنهج الذي اختاره لخلاص البشر من التردي في مهاوي الجهل وسيطرة الأهواء المضللة، فالإنسان يولد بدون معرفة ولكنه يمتلك القدرة على التعلُّم، معتمداً في ذلك على عقله وحواسه، لذا فلا عذر لإنسان سويّ في تركه أو إهماله التعلّم وتحصيل المعرفة، التي يحتاجها لاتخاذ قراراته وتنظيم شؤون حياته، كما أنها من الخصائص المكتسبة المميزة للفرد، وهي بحد ذاتها ذات قيمة اجتماعية عليا ترفع من مكانة العالم، إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

المعرفة أساس الخلق، ووسيلة تدبيره، والبرهان الأسمى على أحقِّيَّة الله دون غيره بالطاعة، ويعود تاريخ هذا الخطاب إلى ما قبل أربعة عشر قرناً، وفي عصر كانت القوة، لا المعرفة، الأساس الأوحد للسلطة بين عرب ما قبل الإسلام، وكذلك الأمم الأكثر تطوراً مثل الروم والفرس، وهذا ما أكدت عليه اعتراضات المشككين والرافضين للعقيدة الجديدة آنذاك، واشتراطهم لتصديق الرِّسالة الإلهية تقديم البراهين المادية – لا العقلية أو المعرفية – الدالة على القوة مثل امتلاك الرَّسول للكنوز أو نزول الملائكة عليه جهاراً.

كما تتضح أهمية المعرفة في الدين من تسمية المعرفة المنزلة بالنّعمة:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا [المائدة:3]

وتطلق تسمية النّعمة عادة على المنافع أو الموارد الموجودة في الكَون، والتي سخَّرها الله لفائدة مخلوقاته وتهيئة سبل البقاء والتطوُّر لهم، مثل: الهواء والماء والأرض والنبات والمعادن، وإذا كان تلقي المعرفة الإلهية وتطبيقها والاستفادة منها نعمة، فإن إنكارها ورفضها وما يجره ذلك من سُلوك السُّبل غير السويّة ونتائج وبيلة أخرى هو إبطال أو إهدار للنِّعمة؛ لأنَّ النِّعمة الفكرية لازمة للاستفادة الصحيحة من النِّعم الأخرى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ [إبراهيم:28]

إنَّ تصنيف الهدي أو المعرفة الإلهية ضمن النِّعم رفع لمكانة المعرفة إلى مصاف الحاجات الأساسية من حيث أهميتها وضرورتها، واعتبارها النِّعمة الأعظم التي تتيح للإنسان الاستفادة الأمثل من بقية النِّعم.

ونجد الدليل المادي على أهمية المعرفة في الإسلام في مساواته بين المعرفة والحرية، فالحرية أثمن ما يمتلكه الإنسان بعد الحياة، وتمثل ذلك في اتاحة الرَّسول الأعظم الفرصة للأسرى من الكفّار لشراء حريتهم مقابل تعليم عدد من المسلمين القراءة والكتابة.

التعلُّم

تتأثر عملية التعلُّم في نظام المعرفة الإسلامي بثلاثة عناصر رئيسية: العقل والأهواء والوحي الإلهي، فالعقل هو وسيلة التحليل والفهم، والحواس هي نوافذ العقل، التي من خلالها يدرك ويستقبل المعلومات، والعقل والحواس مثل بقية القُدُرات والوسائل البشريَّة محدودة الكفاءة، فالعقل معرض للتأثر بالأهواء، والتي هي أهداف ورغبات وميول فكرية، قد تستحوذ على العقل بدرجة تجعله يغفل أو يتغافل عن اعتبارات أخرى جوهرية فيصبح العقل أسيراً للأهواء، ومصدراً لأفكار وسُلوكيات سلبية، وبالتالي فإن من الممكن أن تكون نتائج عمليات الإدراك الحسي والتحليل والاستنتاج العقلي خاطئة جزئياً أو كلياً، ومن هنا تبرز أهمية وضرورة الهدي الرَّبانيّ كعنصر وقاية وعلاج مضاد للأهواء والتحيزات الناجمة عنها. ولم تتوقف العلاقة المعرفية بين الخالق والبشر منذ أن علم آدم الأسماء كلها، وتمثلت في أبرز أشكالها بإنزال الوحي وإرسال الأنبياء والرُّسل، فالهدي المُنَزَل ما هو إلا استجابة رَّبانيّة لحاجة الإنسان إلى المعرفة، وبالتحديد الأحكام والمبادئ والقيم الثابتة التي يحتاجها الإنسان لتنظيم حياته الفردية والاجتماعية، واختيار المنهج الصحيح في التفكير والبحث والاستنتاج وتنمية معارفه، وتكفي نظرة عابرة على سجلات التاريخ البشري للاقتناع بحاجة البشر إلى هذه الأحكام الثابتة والمبادئ والقيم والمثل السَّامية .وأثبتت الحالات اللامتناهية من التخبط البشري وعبر عصور التاريخ المدون بطلان فرضية "الإنسان الراشد" المكتفي بما لديه من معارف وقدرات عقلية على التمييز بين الخطأ والصواب، والمصلحة والضرر، وعلى حسن الاختيار. والفرد في المنظور الإسلامي راشد أيضاً، لكن رشده محدود وعقلانيته مقيدة، وهو ما يتطابق مع المفهوم الحديث الواقعي للعقلانية، لذا فهو لا يستطيع تلمس الطريق السوي دون إرشادات ربانية.

اللَّهُمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون (حديث نبوي)

يؤدي تفاعل هذه القوى الثلاث – أي: العقل والهدي الرَّبانيّ والأهواء، إلى حالات أو مستويات متباينة من المعرفة، تتراوح بين سيطرة الأهواء بسبب رفض أو إهمال الهدي، وما يترتب على ذلك من ضعف المناعة الفكرية إلى هيمنة العقل المهتدي كأعلى مستويات المعرفة.

التعلُّم فطرة

آدم قادر على العصيان، كما هو قادر على التعلُّم، وقد عصا ربه عندما أكل من الشجرة المحرَّمة، فهل كان من المحتمل أن يعصيه أيضاً فيمتنع عن تعلُّم الأسماء، أو يخطأ متعمداً في بيان الأسماء التي تعلمها؟ ولكن هذا محال، والله عالم غيب السموات والأرض يعرف بأنه سيتعلّم وتكون إجابته صحيحة، ليقتنع الملائكة، لأن ميل آدم للتعلُّم آنذاك فطريّ، ولم يكن قد تعرض لتأثيرات أو نزغ شيطاني، كما حدث فيما بعد عندما عصا ربّه، كما لم تتشكل لديه بعد ذاكرة تراثّية قد تنطوي على عقائد أو فكر منحرف، تشوه عملية التعلُّم، وتؤثر في نتائجها مسبقاً، وبحد أعلى هو اقفال عقله تماماً وفرض موروثه العقائدي والفكري على الظواهر والمعرفة مسبقاً، والمثال هي أسماء الأصنام التي اختلقها البشر، وهي أسماء على غير مسمى، ما أنزل الله بها من سلطان، فجعلوا الأصنام الحجرية والأجرام السماوية آلهة يعبدونها، أو يشركونها في عبادة الله، ويتقربون إليها بالأضاحي، على نقيض ما تفرضه المعرفة المتحصلة بالتعلُّم المنهجي القويم.

كان عقل آدم حينها صافياً، وفكره نقياً، واستيعابه كاملاً، واستعداده للتعلُّم عند ذروته، لذا أجاب إجابة صحيحة على سؤال ربه، مبيناً الأسماء كما علمه الله.

يرجّح هذا الإصرار البشري على طلب المعرفة كون هذه النزعة غريزية أو فطريّة، وسواء كان الدافع وراءها حب الفضول أو التعلّم أو الميل إلى القوة والتسلط، أو مجرد جني منافع ذاتية، فإنها وبلا جدال أعظم الخصائص البشريَّة، التي مكنتهم من التفوق على باقي الكائنات وتسخيرها لمنفعتهم، ومن المؤكد أيضاً أن حماس البشر في طلب المعرفة لم يضمحل أبداً وعلى الرغم من أنه كلما ازدادت معارفهم كلما تكشفت لهم ضآلة حصيلتهم منها.

إذن التعلُّم فطرة، موجودة في كل واحد منا، وهي كفيلة بإيصالنا إلى المعرفة، بشرط تنقيتها من التحيزات، والنتائج المُسبَّقة، والمنهج المعوَّج. إذا كانت الخلافة في الأرض أمانة تطوع الإنسان لحملها، أو مهمة فرضها الله على بني البشر فهل التعلُّم فرض وتكليف أيضاً؟

التعلُّم فرض

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي علم بِالْقَلَمِ علم الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعلم [العلق: 1-5]

هي أول آية أنزلت على رّسول الإسلام، وأول كلمة في تلك الآية: اقرأ، وبعدها بكلمات قليلة، يرددها المرء في نفس واحد، تكرار للكلمة، لكي تُدرك أهميتها، وتترسخ أولويتها، ومن بعدها تماماً نطلع على الحقيقة السماويّة وهي أن ربنا علّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم، والخالق هنا هو المعلّم.

اقرأ بصيغة الأمر، وكل أمر في القرآن الكريم مطاع، وحتى لو قيل بأن المأمور بها الرَّسول فقط لكان واجباً علينا التأسّي به، فهو بالنتيجة أمر لنا جميعاً، يوجب علينا تعلُّم القراءة، ولا يستثنى أحد ما دام عقله وحواسه سليمة، ومعها يأتي التعلُّم بالقلم، أي تعلُّم الكتابة، وهي علم من عند الله، وقد أقسم الله بالقلم، فيكون بذلك في مصاف مواقع النجوم والنفس اللّوّامة، وهذا أعظم تكريم لجماد.

هدي الله المنزل مكتوب، وكتابته ضرورية لحفظه، ولولا ذلك لكان من الصعب نشره، وفي الآخرة يقرأ المرء كتابه، حتى لو كان أمياً في هذه الدنيا، وإذا تداينا بدين إلى آجل مسمى فعلينا كتابته، وما دام الهدي الرَّبانيّ للجميع فالواجب عليهم تعلُّم القراءة والكتابة، ولعل أبرز دليل على أهمية التعلُّم مساواتها بفرض الجهاد الدفاعي:

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [التوبة: 122]

لا يقتصر التعلُّم على مهارتي الكتابة والقراءة وفهم واستيعاب العقائد والتعاليم الدِّينيَّة، بل يشمل كل أنواع المعرفة، العلمية والاجتماعية والمهنية، والكلّ مطالبون بجعل التعلُّم واجباً يعتادون عليه ويمارسونه كل يوم، فلا يمر يوم من دون تعلُّم مفيد، لتثقيف العقل، أو تطوير المهنة، أو تحسين أداء العمل، واضعين صوب أعينهم أهمية ذلك لأداء المهمة العظمى، أي الخلافة في الأرض، وما تستدعيه من إصلاح، فردي وجماعي، وإحياء للبشر والخلق، وتجنب الفساد وسفك الدِّماء.

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعلماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ [فاطر:28].

موسى النبي المُتعلِّم

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعلمنِ مِمَّا علمتَ رُشْدًا [الكهف: 66]

هو نبيّ الله وكليمه، ذو الدعوة المستجابة، في تعيين أخيه نبياً، وطمس أموال فرعون وملأه والطبع على قلوبهم، ولما بلغ أشدُّه آتاه الله حكماً وعلماً، ولكنه لم ينقطع عن التعلُّم، فيشّد الرحال ابتغاءً للعلم، مصمماً على المضي في طلبه، ولو استغرق ذلك حُقُباً من الزمن، ولا يثنيه عن ذلك تعب وإرهاق، فيُكمل حتى لقاء المعلّم، ويتواضع أمامه متقمصاً دور المُريد التابع، ويسأل من هو ليس بنبيّ مثله، أن يعلمه من علمه، فوافق ولكن بشرط: لا تسألني حتى أبين لك، أي السؤال بعد نهاية الدرس والشرح، وقبل موسى بالشرط، ووعد بتنفيذ أوامره، لكنه لم يصبر فسأل قبل الأوان، وتكرر ذلك مرتين، وفي كل مرة يطلب المعلِّم من النبيّ مفارقته، لإخلاله بالشرط، فيعتذر النبيّ ويعده بعدم التكرار، وبعد المرة الثالثة جاء التأويل أو الشرح، ليبين قاعدة جوهرية من قواعد البحث والتحليل والاستنتاج، تقضي بأن المعرفة السطحية للظواهر من سُلوكيات وغيرها تكون أحياناً غير كافية، والاستناد عليها وحدها في فهم الظاهرة غير كافٍ، بل قد يكون مضلِّلاً، فلابد من التعمق في تقصي دوافعها ومبرراتها.

النبي موسى من أُولِي العزم، حباه الله بالعلم، لكنه بقي متعلّماً، يسافر ويجهد نفسه ويقبل بأن يكون تابعاً من آجل العلم، ولم يكتفي موسى بالتلقي بل طلب من معلمه شرح وتفسير أفعاله ليفهمها، والأنبياء صفوة البشر، والواجب الاقتداء بهم، وفي هذه القصة القرآنية توجيه رباني بمواصلة التعلُّم.

يمتاز الأنبياء والرُّسل بالعلم والحكمة، وهم أيضاً بشر مثل غيرهم، يتعلمون بالطرق المعهودة، ولكونهم قدوة للآخرين، فقد بينوا أهمية وضرورة التعلُّم وطرق التعلُّم، ويتضح من الآيات القرآنية بأن حب المعرفة والرغبة في التعلُّم صفة أساسية لهؤلاء المصطفين، فقد سأل النبي إبراهيم ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، فبرهن له من خلال تجربة حِسِّيّة على قدرته المطلقة على إحياء الموتى، وكان الدافع وراء سؤال النبيّ موسى رؤية الله حب المعرفة، فتجلَّى الله للجبل ليثبت له بأنّه موجود ولكن لا تدركه الأبصار.

استمرارية التعلُّم

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعلمونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]النحل:78]

يولد الإنسان جاهلاً من دون علم، ولكن لديه كل وسائل التعلُّم، من عقل وحواس، لتبدأ رحلة التعلُّم، مباشرة بعد الولادة، ومع تنفس الهواء، قبل الكلام والمشي، يتعلّم لكي يمارس قدراته البشريَّة الأساسية، فهو يولد ناطقاً، ولكن من دون لغة، وقادراً على المشي، لكنه سيتعلّم الحبو قبل الوقوف على رجليه، وإن كان البكاء أول أفعاله فلن يتعلّم مغزاه إلا من خلال ردود الفعل، ومن دون تعلُّم في أول حياته سينحدر إلى حالة ضائعة، فلا هو بشر تماماً ولا هو حيوان.

لتعلُّم الفرد في المؤسسات نهاية، مقترنة بحصيلة محددة من المعارف، تدلُّ عليها شهادة، لكن ذلك لا يعني توقفه عن التعلُّم، سواء كان أقل الناس علماً أو أعلمهم، فالمعرفة متطورة، وليس لها نهاية، وتقتضي هذه الحقيقة الثابتة أن يكون الفرد متعلّماً بلا انقطاع، وفي كافّة جوانب حياته وعمله، والتوقف عن التعلُّم مع القدرة معناه القبول بالمعرفة الناقصة أو حتى غير الصحيحة.

تحثُّ الأحاديث والسيرة النبويّة في الإسلام على التعلُّم وعلى استمرارية التعلُّم من المهد أو الولادة إلى اللَّحد، وإنزال القرآن الكريم هو بحد ذاته دعوة للتعلُّم، فالقرآن كتاب كما يصفه الخالق، ولن يستطيع مسلم دراسة آياته وحفظها وتعلّمها من دون مهارة القراءة والكتابة ومعرفة معاني الكلمات وغير ذلك من المعارف العقلية الضرورية، ويجعل الاختيار الرَّبانيّ للكلمة المكتوبة ــ بدلاً من النقل الشفهي الأوسع انتشاراً واستعمالاً في ذلك العصر- كوسيلة لمخاطبة البشر من التعلُّم واجباً محتماً على المسلمين، وإذا كان ذلك فرضاً في تلك الفترة، التي اتصفت بندرة المُتعلّمين، فإن من المنطقي تنامي أهمية التعلُّم مع ازدياد عدد المُتعلّمين، وإدراك الناس لأهمية المعرفة وانتشار مؤسسات التعليم.

الشُّورى التي أمرت بها الآية التالية:

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران:159]

هي في جوهرها عملية تعلُّم لأنها تستند إلى مبدأ تعدد وغزارة التجارب والمعارف البشريَّة، وقد لا يكون ما لدى عقل بشري واحد من معرفة ودراية وقدرات تحليلية كافياً للتوصل إلى قرارات صائبة دائماً، وتتيح الشُّورى مشاركة أكبر عدد من الأفراد في دراسة وتحليل المسألة واختيار أفضل بدائل القرار بشأنها، وعندما تتشاور مجموعة من الأفراد حول مسألة ما يتعلّم كل واحد منهم من الآخرين، ولولا المشورة لما حفر المسلمون الخندق لحماية المدينة من جيش الأحزاب.

يتوقف التعلُّم لأسباب قاهرة فقط، هي الموت أو العجز، عندما يتوقف عقل الإنسان أو تضعف قدراته على الادراك والتحليل وهو ما يبينه لنا القرآن الكريم أيضاً:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعلم بَعْدَ علم شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [النحل: 70]

القاسم المشترك بين الآيتين، المتعلقتين بالولادة وأرذل العمر، هو التعلُّم، في الأولى وصف القرآن الكريم الإنسان عند الولادة بانعدام العلم أو المعرفة مع وجود العقل والحواس، وفي الثانية اقتران أرذل العمر بتوقف عملية التعلُّم، وهو دليل على أهمية هذه القدرة البشريَّة وضرورة تطبيقها والاستفادة منها، قبل الوصول إلى تلك النقطة التي يتوقف فيها التعلُّم بسبب الوفاة أو أرذل العمر، فالمطلوب أن تكون عملية التعلُّم مستمرة ونشطة وفعالة طيلة حياة العقل.

حرية الإرادة شرط للتعلُّم

إن حرية الإرادة شرط أساسي وضروري للاختيار، فلو أقرَّ الهدي الرَّبانيّ إكراه الناس على الإيمان لألغى بذلك دور العقل وإمكانية الاختيار، ونفى حرية الإرادة، ولن تكون هنالك حاجة أو جدوى للتفكّر والنظر في الظواهر والآيات، والاعتبار من الأمثال والقصص، ومن ثم التوصل بعد فهم معانيها ومدلولاتها إلى الإيمان، ولكن تكفي قراءة واحدة للقرآن الكريم للاقتناع بأن لا إيمان ولا تصديق حقيقي بدون حرية الإرادة والعقل، ولو فُقد هذا الشرط الأساسي لغدا الإيمان مجرد تقليد أعمى وأجوف أو موقف قسري يتكلَّفه الفرد نفاقاً أو اتقاءً لسطوة حاكم أو مجتمع منغلق ومتعصب، وليس لإرادة الشخص واختياره أي دور في ذلك.

ونجد النص الواضح والصريح على مبدأ حرية الفكر في الآيات القرآنية التالية:

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً [الإنسان:29]

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ [التكوير:27-28]
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ [الغاشية:21-22]

التعلُّم والبحث

يحصل الفرد على العلم أو المعرفة عن طريق التعلُّم، الذي يبدأ منذ لحظة الولادة ويستمر ما دام عقله قادراً على ذلك ومنفتحاً على المعرفة. والمعرفة في هذا المنظور غير منتهية عند نقطة معينة، بل هي متطورة ومتنامية، لذا ينبغي على الفرد المداومة على البحث عن المعرفة والمساهمة في تنميتها لما للمعرفة من قيمة عليا بالنسبة له ولمجتمعه ولأداء مهام الخلافة من إحياء وإصلاح. وكما هو معروف تتطلب عملية البحث عن المعرفة مستلزمات محددة مثل المفاهيم ووسائل جمع البيانات وأساليب التحليل والاستنتاج.

لم يكتف النظام المعرفي القرآني بالتشجيع على طلب المعرفة، بل شرح المنهجية العلمية المنضبطة، وأوضح القواعد والأسس السليمة لعملية البحث، ونبَّه إلى الأخطاء والانحرافات والتحيزات التي قد تحيد بهذه العملية عن مسارها الصحيح وتمنعها من بلوغ أهدافها، ودعا إلى توخي الدِقَّة في إطلاق واستعمال الأسماء أو مسميات الظواهر وضرورة استناد المسميات إلى واقع مادي أو حجج وأدلة، كما تبين الآية التالية:

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ [يوسف:40]

وتشير هذه الآية إلى الخطأ الذي وقع فيه أتباع الديانات غير السماوية باختلاقهم أرباب، وإطلاق أسماء عليها مثل: اللات والعزى وهبل واعتبروا هم والأجيال اللاحقة من بعدهم تلك الأسماء أرباباً حقيقيين مستحقين للعبادة.

ويتضمن القرآن الكريم توجيهات واضحة وجلية بضرورة الاعتماد على أدلة كافية في بناء الاستنتاجات وإصدار الأحكام، ويشترط أن تكون هذه الأدلة مادية، أي مستمدة من الواقع، وأن تكون صحيحة ودقيقة، وينهى نهياً قاطعاً عن الاكتفاء بالظنون أو أنصاف الحقائق أو الإفادات المشكوك في صحتها والتحيزات، ويؤكد على التمييز بين الحقيقة والظنِّ وضرورة اكتمال الأدلة المادية.

سادساً: الخلافة والعقيدة

الإنسان خليفة الله في الأرض، والغايتان العظمتان للخلافة هما الإحياء والإصلاح، ووسيلة تطورها عبر الزمن التعلُّم، لكن هذه العناصر الكونية للخلق لا تكتمل من دون الهدي الرَّبانيّ، الذي لولاه لما تعرفنا على هذه الحقائق الثابتة، ولما أدركنا أهميتها وضرورة التمسك بها وبالثوابت الدِّينيَّة المنظمة لها.

بيَّن الهدي الرَّبانيّ الوظيفة الكبرى للبشرية، وعرّفنا بغاياتها ومقوماتها، وأوضح المنهج الواجب اتباعه في أداء مهامها، وبالصفات التي ينبغي الاتصاف بها لبلوغ غاياتها، وبضرورة المداومة على التعلُّم لكي نكون قادرين على أداء التكليف بالخلافة وتطوير أداءنا لمهامها العظمى.

الخلافة وما تشتمل عليه من غايتين عظمتين والتعلُّم والهدي عناصر متكاملة ومترابطة ومتفاعلة فيما بينها، ترفد كل واحدة منها الأخرى، ولا يمكن أداء أيّ منها على الوجه الصحيح من دون بقيتها، نبدأ بالهدي، ومنه ندرك بأننا خلفاء، وبأن للخلافة غايتين كبريتين، والتعلُّم وسيلتنا في أداء مهام الخلافة وبلوغ غاياتها، ومن الهدي أيضاً نتعلّم كل العقائد والواجبات والتعاليم والعبادات المطلوبة، وجميعها بالتالي تصب في التيار المتدفق نحو الإصلاح والإحياء والتعلُّم.

تفضي العقيدة إلى الخلافة، والخلافة تستدعي العقيدة، فالتوحيد مثلاً، وهو أصل العقيدة، يقتضي اتباع هدي الخالق الواحد لا غيره، وتطبيق أحكامه وجعلها فوق كلّ أحكام البشر، والصلة بين التوحيد وغايتي الخلافة مباشرة وجلية، إذ يحتّم التوحيد رفض أي تشريع مخالف للإحياء، مثل الإباحة المطلقة للإجهاض وتشريع الانتحار ومساعدة الراغبين بالانتحار أو ما يعرف بـ"قتل الرحمة"، كما يحصَّن التوحيد ضد الفساد، فكل ما أباحته الشريعة صالح وإصلاح، مثل الزواج المشروع، وكل ما نهت عنه فاسد وإفساد، مثل الخمر والميسر والرِّبا والفجور.

الخلافة من صميم العقيدة، فلا تناقض بينهما، وكلّ ما جاءت به العقيدة نافع للخلافة، ولا غنى للبشر عن العقيدة في فهم الخلافة والعمل بها، فهما متكاملان، كما ليس بينهما تقديم وتأخير، بل تزامن تامّ، واليَسَر صفة العقيدة، فهي ليست معقدة ولا مبهمة، بحيث يتوقف الناس محتارين في فهمهما وإدراك التَّكليف بالخلافة، فالإسلام دين للبشرية جمعاء، وهو دين اليسر، في عقيدته وتعاليمه، فلابد أن يكون ادراكه وفهمه ميسراً أيضاً، وفي متناول جميع المتلقّين، بشرط سلامة الحواس وانفتاح العقل، والتجرد من المؤثرات المتحيزة، والقرآن وعاء الهدي والعقيدة، وهو العهد الدائم بين الله وعباده، والميثاق الثابت المبين للعلاقة بين الطرفين، في الدنيا والآخرة، ويقضي عدل الله المطلق وقدراته اللامحدودة أن يكون هذا العهد ميسراً لفهم البشر، ولو اقتصر الفهم على فئة من الناس لوجب النصُّ على ذلك، ولسقط عن الباقين التَّكليف بالعهد بالمطلق، أو لكان ذلك مشروطاً، فالواجب على كل من أراد الدخول في هذا العهد ادراك وفهم محتوياته، بالاحتكام للعقل والفِطرة السليمة، ولا يعفيه من المسؤولية والحساب استعانته بعقول غيره، والقرآن واضح في نصِّه على أن القلوب المقفلة أو العقول المغلقة باختيار أصحابها وحدها غير قادرة على تدبّر وفهم القرآن وما نصّ عليه بخصوص الخلافة والإحياء والإصلاح والتعلُّم وغيرها.

الخلافة والعبادات

العبادات ركن من أركان الدين، فلا يستقيم التَّدين بدونها، وهي أيضاً مسارات نحو غايات الخلافة، وكلّ العبادات وسائل لتهذيب النفس، لتكون واعية بالخلافة وأهميتها، ومدركة لضرورة العمل نحو غاياتها، ومقبلة على التعلُّم لتنمية قدراتها، كما تساهم بحد ذاتها في تحقيق أهداف الخلافة،

فالصَّلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، وهي بالتالي إصلاح للنَّفس، كما انها رابطة وثيقة تجمع بين المسلمين، ليتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا في أداء الخلافة، وهي تذكرة للمسلم بوجوب التمسك بالتعاليم الدِينيَّة، التي تحرم سفك الدم وتدعوا الى الإصلاح.

العبادات واجبة بحد ذاتها، وهي كلها تهذب نفس الفرد وتُقرَّبه من الخالق، لكنها لا تنفصل عن الخلافة، إذ ينبغي أن ترفد الخلافة، لذا لا رهبانيّة في الإسلام، لأن المؤمن مطالب بالعمل وتحصيل الرزق وغيرها من الواجبات، ولو ترهبن فسيكون عالة على الغير، قدراته عاطلة، وإنتاجه معدوم، ولا ينفع بعمله الناس، وقدرته على التعلُّم مقصورة على العبادات، وهذا الراهب أو الناسك أصلح حاله ومنعها عن الإفساد وسفك الدِّماء، ولو قلده الآخرون حتى يكون جميع البشر مثله رهباناً لتوقفت عجلة الحياة وانتهت البشريَّة، لذا لا تستقيم الرهبانيّة مع الخلافة، والخلافة أولى.

الجهاد فريضة وعبادة، وهو ليس استثناءً على الإحياء، كما قد يبدو ذلك ظاهرياً، بل لا تناقض بينهما البتة، فالجهاد ضروري للإحياء، لأنه جهاد دفاعي بحت، هدفه صدُّ العدوان، وحفظ النفس البشريَّة، وما تتطلب من حاجات أساسية، مثل الموطن والمسكن والطعام، فهو متطابق مع الإحياء، ومن حق المسلم المعتدى عليه رد العدوان، بمثل ما أعتدي عليه، ولا يجوز السكوت على العدوان أو التهاون في التصدي له، كما لا يجوز للمسلم ابتداء العدوان على أحد، لأن الأصل في العلاقات بين المسلمين وكافة البشر السَّلام والإحياء، ولو صَلُح الناس لقلَّ احتمال حدوث الظلم والفساد، وحتى الجهاد بذريعة نشر الدين منافي لعقيدة الإحياء، لأن نشر الدين واجب بالكلمة والموعظة الحسنة لا غير، ومن البديهي أن يكون الإصلاح أيضاً بالكلمة والعمل لا سفك الدِّماء والإفساد.

الخلافة والإسلام والإيمان

كلّ البشر خلفاء، ومكلفون بالإحياء والإصلاح والتعلُّم، ولكنهم قد لا يدركون هذه الحقائق، بينما يتميز المسلم عليهم بمعرفتها يقيناً، لأنها واردة في الوحي الرَّبانيّ، ومن صميم العقيدة، والاعتقاد بها واجب، مثل كل ما يرد في القرآن الكريم، والمسلم مكلف بإيصال هذه العقيدة إلى غير المسلمين، لكي يدركوا هذه الحقائق العليا، وهو مطالب أيضاً بتطبيقها، تنفيذاً لأمر الله، ولتقديم الدليل لغير المسلمين على عظمة وإنسانية هذا الدين.

قد لا يدرك بعض المسلمين بأنهم خلفاء، أو لا يلمّون بمكنونها بالكامل، وهم يؤدون بعض جوانبها لأن ذلك من الأعمال الصالحة، المأمورين بها والمُثابين عليها، لكن هؤلاء الصالحين لم يكونوا يوماً بالعدد الكافي أو التصميم المطلوب لإحداث التأثير المرغوب به في أحوال المسلمين، أو على الأقل منع استعار الحروب والفتن بينهم، وصد موجات الإفساد ومخلفاتها عن أفرادهم ومجتمعاتهم.

التديَّن مراتب، تتدرج من مستوى أدنى إلى أعلى، ومن السطحية إلى العمق، وكذلك الخلافة والعمل بواجباتها، وتتضح مراتب التديَّن والخلافة من درجات التعامل مع المنكَّر وتغييره، وهي ثلاث: القلب واللسان واليد، وأضعف الإيمان العمل بالخلافة قلبياً وفكرياً، يؤمن بها الفرد، ويقرُّ بأهميتها ، ويجهد عقله بالتفكر بها، ويتمنى لو يؤديها، بل وقد يشغل وقته بتخيل ذلك، وهو يهتم بشؤون أخوته المسلمين، ويتمنى إصلاح أوضاعهم، كما يحزن لو تعرضوا لعدوان، وسُفكت دماؤهم، وشُردوا من ديارهم، ولكن لا يصدر عنه أيّ قول أو عمل في سبيل إحياءهم وإصلاح حالهم، وهنا تكون مهمة الخلافة مدركة ولكنها معطلة تماماً، ولا ينتفع بها أحد.

في المرتبة الوسطى يكون الإيمان بالخلافة بدرجة أعلى، إذ يتحول من مجرد فكر إلى قول، حينذاك يتحدث الفرد بالخلافة، مبيناً أهميتها ومقاصدها، وداعياً للعمل بها، وينصح ويوجه بالإصلاح، ويحدد أهدافه وأساليبه، ويحذر من الإفساد، كاشفاً عن مواطنه، ومرشداً لكيفية تجنبه والتصدي له، وبنفس الطريقة يتعامل مع الإحياء، مكتفياً بإبداء النصح والتوجيه، وقد يكون لهذه

المرتبة من التطبيق اللساني للخلافة بعض النتائج الإيجابية من حيث توعية الناس لكن تأثيرها غالباً محدود، ونتائجها قاصرة، وفعاليتها متدنية في منع سفك الدِّماء والإفساد والدفع نحو الإحياء والإصلاح.

في المرتبة الأعلى من تطبيق التكليف بالخلافة ومستلزماتها يكون الوعي بها مكتملاً في عقل الفرد، ويتحرك لسانه من أجل توعية الآخرين بها، ويحرص عليها بقدر حرصه على العبادات، لأنَّ الالتزام بها وتأدية واجباتها طاعة لله، فهو مبادر إلى الإصلاح والإحياء، ويعمل بيده وحده وبالتعاون مع الغير في سبيل تحقيقها، ويساهم بحيوية ونشاط في الجهود الهادفة لذلك، ويحمل نفسه المسؤولية عن ذلك، لأنه بالإضافة إلى الوعي يمتلك العزم والتصميم على أداء هذا التكليف، فلو حدث صراع بين فئتين مسلمتين يعتبر نفسه مقصراً، لأنه لم يسعى لمنعه، وبعد وقوعه يهرع لإيقافه، ويدرك بأن الواجب أصلاً الوقاية من الخلاف والصراع، من خلال الإصلاح الفعّال والشامل، ومكافحة جذوره النفسية ومعالجة مسبباته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكما هو معني بتعليم أولاده يهتم بنشر التعليم بين كافة المسلمين، حتى يصبح عنصراً أساسياً في نمط حياتهم وجانباً من روتينهم اليومي، فالكلّ معلّم ومُتعلّم.

يتوقف حدوث التغيير الإيجابي المنشود على وجود مبادرين نشطاء، يتولون المسؤولية عن التغيير، وتوفير مستلزماته، ووجود هؤلاء الأفراد أهم من المتطلبات الأخرى مثل الأموال والخطط والمهارات التخصصية، لأن هؤلاء المبادرين قادرون على تهيئة الموارد الأخرى، وبالتالي تحقيق التغيير المستهدف، لذلك هم العنصر الحَرِج الذي من دونه تتوقف عملية التغيير، وعندما يعي المسلم أنه خليفة في الأرض بتكليف ربانيّ، ويكتسب العزم والتصميم على الامتثال لهذا التكليف، وينشط من أجل الإحياء والإصلاح والتعلُّم يصبح الجميع مبادرين للتغيير الحميد، وأدوات فعالة في سبيل تحقيقه، وإذا كان وجود ثلّة من القياديين المبادرين والملتزمين كاف لتغيير مجتمع برمته فمن المؤكد بأن تصدي جميع أفراد المجتمع أو الأمة لها الدور والمسؤولية سيكون له نتائج إيجابية مذهلة وفي زمن قياسي.

الخلافة والمذاهب

البشر مكلّفون بالخلافة في الأرض، قبل نزول الرسالات السماوية، ومن قبل أن تتكون المذاهب، والخلافة واجب على الجميع، وما تتضمنه من إحياء وإصلاح وتعلُّم متفق عليه بين الجميع، بغض النظر عن مذاهبهم وانتماءاتهم الطائفية، لذا لا يترتب على الاعتقاد بالخلافة استحداث مذهب جديد، كما أن خلافة البشر في جوهرها دعوة إلى توحيد الجهود، بينما التفرق في مذاهب مشتت للجهود ومعطل للخلافة، كما تقتضي الخلافة الاشتغال بالمصالح الحيوية الكبرى للفرد والجماعة من خلال الإحياء والإصلاح والتعلُّم لا انشغالهم بتحري وتطبيق الأحكام المذهبية الفقهية في التفاصيل والشكليات، فمن الضروري اعطاء الخلافة استحقاقها من فكر الفرد وجهده ووقته بالكامل ومن دون نقصان.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام:159]

عندما تكون لخلافة الإنسان على الأرض الأولوية في الفكر والتطبيق ستختفي الخلافات المذهبية والفروقات الفقهية ويحل التآلف والتعاون والوئام محل التباعد والتنافس والصراع، وهي غاية ووسيلة في نفس الوقت، غاية بحد ذاتها لأنها إحياء وإصلاح متواصلان، وهما شرطان لاستمرارية

التعلُّم، كما أنها وسيلة لتوحيد الجهود نحو تأدية واجبات الخلافة، وتحرير عقولنا من أسوار المذهبية شرط ضروري للتوحد حول عقيدة الخلافة تنفيذاً للتكليف الرَّبانيّ العظيم، فإذا أبصر أحدنا الآخر لم يرى سوى خليفة مثله، يشترك معه في الرؤية والأهداف والوسائل، ويكون مستعداً تمام الاستعداد للتعاون معه من دون تردد أو تحفظ.

سابعاً: المحصلة نحو الأحسن

يشترط في العقيدة المثلى الريادة، فهي لا تتأخر أو تواكب بل تقود، وهوما يتحقق بالفعل من خلال أداء مهام الخلافة، ولكل من عناصرها الثلاثة مدى تطوري، فمن الواضح أن الإحياء عند درجة منخفضة في عالمنا المعاصر المبتلى بالحروب والنزاعات والجرائم، ويبدو هدف إحلال السَّلام والوئام والتعاون بين كافة البشر بعيد المنال، لذا تستمر الحاجة لبلوغ درجات أعلى من الإحياء، والكثير من جوانب الحياة بحاجة ماسة للإصلاح، وديمومته ضرورية للتخلص من الفساد وتحسين جودة العيش، والتعلُّم أيضاً عملية مستمرة، ولا غنى عنها للفرد والجماعة في الوصول إلى درجات أعلى من الإحياء والإصلاح، وعندما يقتنع المسلمون والبشر بصورة عامة بأنهم كلهم مكلفون بإحياء وإصلاح الإنسان والطبيعة من دون توقف، ويعتمدون التعلُّم كوسيلة كبرى لبلوغ هاتين الغايتين العظيمتين فستكون المحصلة التطوُّر نحو الأحسن في كل مناحي الحياة.

يقدم القرآن الكريم منهجاً للتطور من الحسن إلى الأحسن، وكما يتبين من التوجيهات المبينة في الآيتين التاليتين:

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ [الأعراف:145]
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ [الزمر:55]
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُو الْأَلْبَابِ [الزمر:18]

وكلّ التعاليم المبينة في الوحي حسنة، ولكن في بعض الحالات توجد تعاليم حسنة وأخرى أحسن منها، فمن الواضح بأن الأحسن من بذل المال في الدفاع عن الناس بذل النفس والمال، كما أن التعارف بين الناس وكياناتهم الاجتماعية حسن، والأحسن من ذلك توحد المسلمين في أمة واحدة، وبالنسبة للمرأة فقد كانت في مجتمع ما قبل الإسلام أشبه بالسلعة، ولم يكن حقّها في الحياة مكفولاً، فأبطل الإسلام وأد الإناث وأنواع الزواج المنتقص من إنسانية المرأة مثل المقت والشغار وفرض لها حقاً في الميراث، وهكذا تحول وضعها من سيء إلى حسن، ولكن لم تختفي كل جوانب النظرة السلبية للمرأة في المجتمع، كما يتبين من وصف القرآن الكريم لمكانتها الاجتماعية ومهاراتها الفكرية المكتسبة في زمن الرِّسالة:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ [الزخرف:17-18]

فالمرأة في هذا الوصف الدقيق غير مرغوبة منذ الولادة، وبدلاً من أن يحمد والدها ربّه على هذه النّعمة يسّود وجهه حزناً وغماً، كما تعامل مثل دُمية لا إنسانة عاقلة، تزين بالحليّ لا بالتعليم والمعارف والمهارات الفكرية، لذلك تعجز عن التعبير عن موقفها ورأيها أثناء الجدال أو الخصام، وقد اعتبر المفسرون وأصحاب المدارس الفقهية هذا الوصف منطبقاً على طبيعة المرأة التي هي في حكمهم "ناقصة الظاهر والباطن" خلقاً، وليس من المعقول والمقبول في حق الخالق أن يقال بأنه خلق الأنثى ناقصة العقل بحيث لا تقدر حتى على التعبير عن نفسها، ثم فرض على الرجل التزوج من هذه

المخلوقة الناقصة لتكون أماً لأولاده من الذكور والإناث الذين فرض عليهم طاعتها وتوقيرها، ولو قبلنا بأحكام هؤلاء المفسرين والفقهاء حول عجز المرأة عن التفكير والتعبير فلا تجوز في عدل الله محاسبتها على قراراتها وسُلوكها، وفي المقابل يقدم لنا القرآن الكريم نموذجاً إيجابياً للمرأة التي جادلت الرسول حول مسألة الظِهار فاستجاب لها الوحي بالحلِّ لمسألتها، لذا فالأجدر اعتبار الوصف القرآني لحالة المرأة السلبية انتقاداً شديداً لنظرة المجتمع إلى المرأة والطريقة السائدة في التعامل معها، ودعوة لتغيير ذلك نحو الأحسن، فالواجب تربيتها وتعليمها لتكتمل مهاراتها الفكرية وتكون قادرة على التحليل العقلاني والتعبير عن رأيها، وهو ما لم يتحقق ولقرون طويلة في التاريخ الإسلامي، ولهذا السبب فقد تجمد وأحياناً تخلف دور المرأة في المجتمعات الإسلامية، ولم يشهد أي تحول نحو الأحسن.

نجد مثالاً آخر على الإصلاح من الحسن إلى الأحسن في وضع المُسترَقّين، فقد كان العبيد قبل الإسلام مجرد بضاعة، وهو الوصف الذي استعمله القرآن الكريم للنبي يوسف المُسترَقّ نتيجة غدر أخوته:

وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً [يوسف:19]

والوصف بحد ذاته وصمة للعبودية لأنها تحول الإنسان المكرّم من الله إلى مجرد بضاعة ذات ثمن تباع وتشترى، وتفيد قصة يوسف بأن المُسترَقّ قد يمتلك من القدرات الفكرية ما تميزه عن الأحرار، وفي تعيين يوسف في منصب العزيز دلالات مهمة بالنسبة لمسألة الاسترقاق، ومن أهمها أنَّ العبد أجدر أحياناً من الحرِّ في بلوغ أعلى المناصب في دولة عظمى، مما يطيح بالافتراض السائد في المجتمعات القديمة بشرعية استغلال العبيد ومعاملتهم كبضاعة أو ماشية، وهو اعتراف صعب وقاسي من مجتمعات مؤسسة على العبودية مثل مصر القديمة، كما أنها دعوة واضحة للمسلمين لتحقيق ما هو أكثر عدلاً وإنصافاً وإنسانية في معاملة المُسترَقّين.

فرض الإسلام الرفق في معاملة المُسترَقّين، وهو تحول من وضعهم السيء ما قبل الإسلام نحو الحسن، لكن مقاصد الشريعة كما يتبين من نصوص قرآنية واضحة أرادت الذهاب إلى أبعد من ذلك بكثير، وبالتحديد وضع نهاية للاستعباد، فقد جعلت تحرير مُسترَقّ إحدى كفّارات القتل غير المتعمد واليمين الكاذب والظِهار، ووضعته في مصاف الأعمال الحسنة العظمى مثل الصوم وإطعام الفقراء:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً [النساء:92]

لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ [المائدة:89]

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا [المجادلة: 3]

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [البلد:11-16]

وهي توجيهات كافية للاستدلال بأن الاستعباد مخالف لإرادة الخالق، وكما أن إحياء الفقراء وإصلاح أمورهم واجبة كذلك فإن تحرير العبيد واجب أيضاً، ولكن لم تلقى هذه الدعوة الاستجابة اللائقة والواجبة بسبب تأثيرات المصالح الضيقة والقيم السائدة ما قبل الإسلام، وبقيت المجتمعات الإسلامية مثقلة بالعبودية وظلامها حتى وقت قريب، وهو ما فوت الفرصة في أن تكون الرائدة في تحرير العبيد والتخلص من هذه الوصمة الكبرى في تاريخ البشريَّة.

ثامناً: عالمية الخلافة

يبعث حال المسلمين اليوم على الحزن والأسى، بعض بلادهم محتلة، ونظمهم السياسية غير مستقرّة، وكثير من حكوماتهم استبدادية، ونصفهم أمّيّون، ومجتمعاتهم منقسمة، وطوائفهم متقاتلة، ونظمهم الاقتصادية هزيلة، وتقنياتهم مستوردة، وكتبهم مترجمة، وابداعاتهم نادرة. ليست المشكلة في قلة عددهم، إذ هم تجاوزوا المليار، ولا بقلة الموارد، وغالبية بلدانهم غنية بالماء والأرض الخصبة والموارد الطبيعية، ومعدلات التديّن بينهم مرتفعة نسبياً، وكان من المفترض أن يكونوا من أكثر شعوب العالم تطوراً لكنهم اليوم وبعد أربعة عشر قرناً على ظهور رِّسالة الإسلام في مؤخرة الركب الإنساني.

المسلمون بحاجة للإحياء لوقف نزيف الدم بينهم، والإصلاح لتحسين كافة جوانب حياتهم، والتعلُّم لضمان استمرارية وتطور الإحياء والإصلاح، ولا ترتقي هذه العمليات الحيوية إلى المستويات المطلوبة من دون اِلتزام بالعقيدة وتعاليمها وقيمها وأخلاقياتها، والخلافة شاملة لكلّ هذه العناصر، والمطلوب أولاً أنَّ ندرك بأننا جميعاً خلفاء مختارون، وبتعيين من الخالق، وهذا تكريم عظيم، ومسؤولية كبرى، منها يستمد كل البشر الشعور بعظمتهم، فلا مكان في النفوس بعد ذلك للشعور بالضّعة والدونية أو التعالي والتكبرِّ، فيقبلون على تنفيذ هذا التكليف بمعنويات عالية وتصميم كامل، ويكون المسلمون في مقدمتهم، بفضل العقيدة الكاشفة لهذه الحقائق، والدالّة على المنهج القويم والحضاري لتطبيقها، لتنصب اهتماماتهم على إحياء وإصلاح أنَّفسهم وأحوالهم ومجتمعاتهم وأمتهم، ويساهموا في تطوير أحوال البشريَّة.

الان أدركت بأني خليفة الله في الأرض، إن لم أكن واعياً بذلك من قبل، وإن من واجبي السعي نحو الإحياء والإصلاح وتعويدها على التعلُّم، وماذا بعد؟ كما هو الحال في كل عمليات التغيير الشاملة تكون البداية بالنفس، إذ كلّ واحد منا بحاجة للإصلاح والإحياء والتعلُّم، ومن خلال النظرة الموضوعية للنَّفس وقياسها على المعايير القيمية والأخلاقية يستطيع تحديد جوانب قصورها فيبادر إلى إصلاحها، وإحياء الذات مطلوب لحفظها وتحسين جودة العيش، من خلال التخلص من الأفكار والسُلوكيات الضارّة بصحة الفكر والبدن، وتعويدها على أنماط التفكير والسُلوك السويّة، أما التعلُّم فيتحقق من خلال تبني المنهج الموضوعي وانفتاح العقل وتطوير القدرات والمهارات واكتساب المعارف المتطورة، بالجهد الذاتي وبالمشاركة الجادة في برامج المؤسسات التعليمية.

إحياء وإصلاح وتعلّيم النفس مهام متواصلة للخلفاء، لا تنتهي إلا بتعطل العقل أو الوفاة، ولكن هذا الفرد مكلف أيضاً بمساعدة الاخرين، في بلوغ هذه الغايات العليا، والمسلمون أولى بالمساعدة، ومن واجباته وبالحدِّ الأدنى مساعدتهم على أن تكون حياتهم طيبة، ومساكنهم صحية، وطعامهم وفير، وصحتهم جيدة، ووظائفهم مجزية، ومصالحهم مربحة، وعلاقاتهم وثيقة من دون توتّر أو خلاف، فلو وجد بينهم أمّيّون ساعدهم على تعلُّم القراءة والكتابة، وقدم لهم ما يستطيع ليكمل أبناؤهم دراسته، وهو يبادر إلى ذلك، من دون منّة أو مقابل، بل يعتبر ذلك واجباً عليه، يفرح ويفخر بإدائه، ليكسب به رضا خالقه، ويبرهن بأنه جدير بالخلافة في الأرض.

يمتد نطاق مفعول الخلافة ليشمل جميع المؤمنين، بحكم أخوة المؤمنين، ولان إحياء وصلاح المجتمع رافد لإحياء وصلاح الفرد، ولن يكتمل صلاح الفرد إلا إذا صَلَحَ المجتمع، الذي يعيش ويعمل ويربّي أولاده فيه، وهو وأفراد عائلته لا يستطيعون النَّأي بأنَّفسهم عما يدور فيه، ولو اضطرب هذا المجتمع نتيجة الفساد أو الصراعات فستطالهم آثارها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والكلّ مسؤولون عن إصلاح مجتمعهم وإحياء سكّانه، فلا يجوز ترك هذه المهمة للحكام وأصحاب السلطة، وإن كان هؤلاء وكذلك أصحاب المصالح والثروات في المجتمع يتحملون مسؤولية كبرى عن الإحياء والإصلاح والتعلُّم، تتناسب مع ما لديهم من سلطة وتحكم بالموارد، ولكن ذلك لا يعفي

الناس العاديين عن المسؤولية، لأنّهم الأكثرية في المجتمع، وتوليهم المسؤولية عن الخلافة وما تنطوي عليه من واجبات ومسؤوليات قد يكونّ له تأثير يفوق ما يحققه أصحاب السلطة والمصالح والثروات مجتمعين.

الخلق كلّهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله (حديث نبوي)

الأرض كلّها وما عليها من بشر وحيوان وجماد تقع ضمن مسؤوليات الخلفاء، لذا فلا بد للمسلم من أن ينشط على المستوى العالمي، وخارج أمته الإسلامية، ليساهم ويشارك في عمليات الإحياء والإصلاح والتعلُّم، خاصة في المجتمعات الأشد حاجة وحرماناً، وأن يكون هدفه من ذلك ليس اجتذابهم إلى الإسلام وإنما تنفيذاً للتكليف الرَّبانيّ بالدرجة الأولى.

وأخيراً يجب التنبه على أن جميع البشر خلفاء، بتكليف من الخالق، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها، وتفرض تعاوناً بين كل المتحمسين لأداء مهام الخلافة من مسلمين وغيرهم، فليس الإحياء والإصلاح والتعلُّم حَكر على أتباع ديانة واحدة، وينبغي نشر الوعي بذلك بين كافة البشر، والتعاون مع غير المسلمين الراغبين في المشاركة في تنفيذ مهام الخلافة بإخلاص.